مختارات من
الشعر العربي القديم

مصطفى خليل الكسواني رشدي محمد عيد
حسين حسن قطناني

دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

صدق الله العظيم

مختارات
من الشعر العربي القديم

مَكْتَبَةُ لِسَانِ العَرَب

رابط بديل
lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

مختارات
من الشعر العربي القديم

مصطفى خليل الكسواني زهـدي محمـد عيـد
حـسين حـسن قطنـاني

الطبعة الأولى
2010 م – 1431 هـ

دار صفاء للنشر والتوزيع ـ عمان

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (4110/ 9/ 2009)

811,1

الكسواني، مصطفى

مختارات من الشعر العربي القديم/ مصطفى خليل الكسواني._

عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع 2009 .

( ) ص

ر . أ: (4110/ 9/ 2009)

الواصفات:/ الشعر العربي/ / العصر القديم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقــوق الطبع محفوظة للناشر

Copyright ©
All rights reserved

الطبعة الأولى

2010 م – 1431 هـ

دار صفاء للنشر والتوزيع

عمان – شارع الملك حسين – مجمع الفحيص التجاري – تلفاكس4612190 6 962+

ص.ب 922762 عمان – 11192 الاردن

DAR SAFA Publishing - Distributing

Telefax: +962 6 4612190 P.O.Box: 922762 Amman 11192- Jordan

http://www.darsafa.net

E-mail :safa@darsafa.net

ردمك ISBN **978-9957-24-556-6**

الفهرس

المقدمة 7

الوحدة الأولى

لمحة تاريخية عن نشأة الأدب العربي 11

الوحدة الثانية

مدخل إلى الأدب الجاهلي..... 19

الوحدة الثالثة

الأدب العربي في العصر الإسلامي والأموي 55

الوحدة الرابعة

الأدب العربي في العصر العباسي 101

الوحدة الخامسة

الأدب العربي في العصر المملوكي 129

الوحدة السادسة

الأدب العربي في بلاد الأندلس 163

المراجع 197

المقدمة

هذا كتاب (مختارات من الشعر العربي القديم) تناولنا فيه لمحات ومداخل عن أدبنا العربي منذ نشأته. وقد جاء الكتاب ثمرة جهد وبحث وترتيب يتفق مع خطة جامعة البلقاء التطبيقية، خدمة لأدبنا ودارسيه.

جاءت الوحدة الأولى عن نشأة الأدب العربي، أما الوحدة الثانية فقد تناولنا فيها الأدب الجاهلي، حيث ارتفعت اللغة العربية أواخر هذا العصر، ونشأت لغة فصيحة، كانت مستودع أشعار العرب، الذين جعلوا من أسواقهم التجارية أسواقاً أدبية، وكان الشاعر لسان حال قومه، المدافع عنها، المنافح عن حقوقها، وكانت القبيلة تحتفل بمن يبرز فيها من الشعراء.

وتناولنا في الوحدة الثالثة أدبنا العربي في العصر الإسلامي والأموي لأن اللغة العربية ارتبطت بالدين منذ ظهور الإسلام، بسبب نزول القرآن الكريم بهذه اللغة، فأثر الإسلام في موضوعات الشعر، وقويت مكانة اللغة العربية، وكان للإسلام أثر كبير في إغناء اللغة بالألفاظ التي ولدها الشرع الإسلامي، حتى إذا وصلنا إلى العصر الأموي،وجدنا المدينة ومكة أصبحتا مركزين مهمين من مراكز الشعر، ووجدنا أن استعار العصبيات قد هيأ لاشتعال الهجاء طوال ذلك العصر، فكان من نتيجة ذلك ظهور فن جديد عرف بفن النقائض الذي تربع على عرشه ثلاثة شعراء هم: جرير والفرزدق والأخطل.

أما الوحدة الرابعة فتناولنا فيها الأدب العربي في العصر العباسي، ذلك العصر الذي ازدهر فيه الأدب شعراً ونثراً ودخلت اللغة العربية مرحلة مهمة، فقد بلغت الحضارة الإسلامية في هذا العصر مرحلة متقدمة من النضج والرقي الحضاري، وشجع الحكام علماء اللغة والشعراء والأدباء وقربوهم من مجالسهم وأكثروا العطاء لهم، فبرز في هذا العصر شعراء فحول كالمتنبي والبحتري وأبي تمام وغيرهم.

أما الوحدة الخامسة فتناولنا فيها الأدب العربي في العصر المملوكي فقد حكم المماليك من 1162 هـ – 1247 هـ وفي عهدهم تجددت العناية باللغة وازداد الاهتمام بها، وظهر جماعة من أفاضل العلماء الذين عنوا باللغة وآدابها.

وفي الوحدة السادسة تناولنا الأدب العربي في بلاد الأندلس، تلك البلاد الجميلة، ذات الطبيعة الخلابة والمناظر الساحرة، التي بهرت عقول الشعراء وعيونهم وأثرت في عواطفهم وأحاسيسهم فلا تكاد تخلو قصيدة لهم من ذكر الطبيعة، وأوجد شعراء الأندلس لوناً جديداً من ألوان الشعر العربي عرف بالموشحات الأندلسية، وبرز في هذا اللون من الشعر وشَّاحون كبار كابن زهر وابن الخطيب.

إننا إذ نضع هذا الكتاب بين أيدي طلبتنا الأعزاء، ومدرسيهم الأفاضل والباحثين الكرام، فإننا لا ندعي أننا أوفينا الموضوعات حقها من البحث والدراسة، وإنما يبقى جهدنا قبل كل شيء وبعده دراسة لم تكتمل فيها الحلقات، ولن تكتمل إلا بجهد موصول من قبل الدارسين والباحثين.

لقد اتبعنا في دراسة نصوص الكتاب أسلوباً سهل الفهم، بعيداً عن التعقيد والتكلف، قريباً إلى نفس القارئ، فتطرقنا إلى حياة الشاعر وميزات شعره والمؤثرات التي أثرت في شعره، كما بيّنا في كل نص أسلوب الشاعر وعاطفته، وجاءت دراستنا للنص دراسة فنية وأدبية.

والله نسأل أن نكون قد وفقنا في هذا العمل، فإن أصبنا فهذا توفيق من الله، وإن قصرنا فنحن بشر والكمال وحده لله.

المؤلفون.

الوحدة الأولى

لمحة تاريخية عن نشأة الأدب العربي

الوحدة الأولى
لمحة تاريخية عن نشأة الأدب العربي

الأدب العربي قديم النشأة جداً، وللأدب فنان رئيسان هما:

الأول: الشعر: ويكون منظوماً على أوزان معروفة معينة.

الثاني: النثر: ويكون مرسلاً، لا يتقيد بوزن، وهو أربعة أنواع:

(الخطابة، والقصة، والرسالة، والمقالة).

أما الشعر فهو على ثلاثة أنواع هي:

أ. الشعر الغنائي: أو الذاتي ومنه الذي يطرق الأغراض العاطفية، كالفخر والغزل والرثاء والهجاء.

ب. **الشعر القصصي:** أو شعر الملاحم وهو الشعر الذي يروي البطولات سواء أكانت حقيقية أو خيالية، وهو كثير في الشعر الأجنبي، وقليل في الشعر العربي.

ج. **الشعر التمثيلي:** أو (الدراما) وهو الذي يكتب للمسرح، وعلى ألسنة شخصيات ناطقة مثل مسرحيات شوقي في عنترة، وقيس وليلى.

وقد ذكر الدارسون والنقاد فوارق كثيرة بين الشعر والنثر، وهي تبدو في الأمور التالية:

1. **الشكل الخارجي:** الذي يظهر في الصورة الخارجية، وصورة الكتابة الشعرية.
2. **الجانب التعبيري:** إذ الشعر تعبير فني، يعتمد على الموسيقا، والصورة اللغوية والبيانية، وهدفه الإقناع والتأثير. أما النثر فيقوم على التقرير، ويهدف إلى التعبير عن الأفكار، والإفادة غالباً.

وعلى هذا فقد اختلف الدارسون فيما بين بعضهم بعضاً، أيهما أقدم الشعر أم النثر ؟ وظهر في هذا الموضوع فريقان:

1. فريق قال إن الشعر أسبق، من الناحية التاريخية، من النثر، وليس من الكلام العادي.
2. وفريق آخر قال إنَّ النثر أسبق من الشعر.

ولكل فريق من هؤلاء حججه وبراهينه على ما يقول، ولكن يبدو أن رأي الفريق الغالب هو الرأي الأول، وهو الذي أخذ يتكلم عن نشأة الشعر، وكأنه هو الأسبق، ومن هؤلاء الدكتور شوقي ضيف في كتابه (تاريخ الأدب العربي) العصر الجاهلي.

ومن المؤرخين الذين أشاروا إلى أقدمية النثر الدكتور عمر فروخ في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ص 89 – ج 1 قال: [والنثر أقدم نشأة ودوراناً على الألسن من الشعر إلا أن النثر لما كثر أصبح مبتذلاً، فلم يهتم العرب بروايته كما اهتموا برواية الشعر، حتى روى ابن رشيق قول من قال: " ما تكلمت به العرب عن جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عُشْرُه، ولا ضاع من الموزون عُشْرُه."] وواضح من هذا النص عدة أمور:

- **الأمر الأول:** النثر أقدم نشأة من الشعر، وأكثر دوَراناً واستعمالاً على ألسنة الناس.
- **الأمر الثاني:** أن شيوع استعمال النثر ذهب برونقه حتى صار مبتذلاً، ولما صار مبتذلاً فلم يكن اهتمام العرب به وبروايته بالدرجة الكافية، يساوي بذلك رواية الشعر.
- **الأمر الثالث:** أن ابن رشيق ـ كناقد ـ أفاد أن مما تكلمت به العرب النثر والشعر، لكن جيد النثر كان أكثر استعمالاً من جيد الشعر.

- **الأمر الرابع:** أن نسبة حفظ النثر والشعر تختلف، فالعرب لم تحفظ من النثر عُشرَة، كما أنهم لم يضيعوا من الشعر عُشرَة.

وهي علامة فارقة كبيرة بين رواية الشعر ورواية النثر، ويؤكد هذا المعنى، بل هذا الرأي، بركلمان ــ كما نقل عنه الدكتور محمد أبو ربيع في كتابه (في تاريخ الأدب العربي القديم).

يرى بركلمان أن أقدم القوالب الفنية العربية للشعر هو السجع، أي النثر المقفّى المجرد من الوزن، وترقّى السجع ليصبح رجزاً. يلبي حاجة الارتجال، ولم يستخدمه بعض الشعراء في منافسة الأوزان العروضية الكاملة إلا في زمن الأمويين.

ومن الزجز نشأ بناء أبحر العروض على مصراعين وقافية. أما الأوزان العروضية فلا ريب أن بناءها تمَّ بتأثير فن غنائي، وإن كان بدائياً، ويتضح ذلك الفن في الحداء.

ولعله من الجيد أن نشير إلى أن كلمة (أدب) قد استعملت في مختلف العصور، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، مروراً بصدر الدولة الإسلامية، والعصر الأموي، وعصر الدول المتتابعة إلى هذا العصر الذي نحن فيه وهو عصر النهضة، أو العصر الحديث.

ففي الجاهلية وردت كلمة أدب بمعنى الرياضة ــ رياضة النفس ــ بالتعليم، وحسن الخلق، كما وردت بمعنى الدعوة إلى الطعام والوليمة واستمر هذان المعنيان: المادي والمعنوي في صدر الدولة الإسلامية، عصر الرسول والخلفاء الراشدين. حتى أواخر القرن الأول الهجري فظهر معنى جديد، للدلالة على ما يلقيه المعلم على تلاميذه من شعر، وقصص، وأخبار، وأنساب، كما بقي لفظ الأدباء يطلق على العلماء المؤدبين حتى أواخر القرن الثالث الهجري، بل حدث في القرن الثاني الهجري

أنْ صارت كلمة أدب تظهر ضمن عناوين موضوعات أو كتب مثل: كتاب (الأدب الصغير والأدب الكبير)، لابن المقفع وكتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة.

وكذلك نجد في حماسة أبي تمام باباً أسماه باب الأدب. وفي مرحلة من مراحل الأدب كانت كلمة الأدب تعني علوم الكتابة، والقراءة، والنحو، والصرف، واللغة، والحساب، والمعاملات، والسحر، والكيمياء، والحيل، والبيع والشراء، والسير، والأخبار، وكذلك علم الشعر والعروض.

نشأة الشعر الجاهلي:

أشرنا سابقاً إلى أن الأدب العربي قديم النشأة جداً. والشعر الذي وصل إلينا يمثل دوراً راقياً لا يمكن أن يكون الشعر قد بلغ إليه في أقل من ألفي سنة على الأقل. غير أنه لم يصل إلينا من ذلك الشعر الأول شيء. وضياع القسم الأوفر منه كان بسبب عوامل مختلفة منها:

1. ترك تدوين الشعر.
2. موت نفر كثير من رواة الشعر في الفتوح بعد الإسلام.
3. تشاغل الناس عن روايته بالدين الجديد والفتوح.
4. الإجماع بين النقاد واقع على أن الرجز كان أول الشعر العربي.
5. كثرة عدد الشعراء، ولا يحيط بهم عدد.

هذه إشارة إلى قدم نشأة الشعر، ومن أصحاب هذه الإشارة الدكتور عمر فروخ. ونحن لا نعدم إشارات أخرى مثلها عند الدكتور شوقي ضيف. انظر إليه في ص 183 من كتاب العصر الجاهلي ماذا يقول ؟!

" لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة"، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية، وفي المعاني

والموضوعات، وفي الأساليب والصناعات المحكمة، وهي تلقي ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر، ونشأته الأولى... ".

حاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار، فعقد فصلاً تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين، وتأثر به ابن قتيبة، فتحدث أيضاً عن أوائل الشعراء الجاهليين، وهم ـ عندهما ـ أوائل الحقبة الجاهلية الناضجة المكتملة البناء.

جاء في ديوان امرئ القيس البيت التالي:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ونحن لا نعرف من هو ابن خذام هذا؛ ولا نعرف عنه شيئاً، سوى أنه أول من بكى الديار، ووقف على الأطلال.

وفي قراءة الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا، تلقانا هذه الصورة الناضجة للقصيدة الجاهلية، منذ أقدم نصوصها. ومع ذلك يمكن القول إن توجد بعض القصائد الجاهلية يضطرب فيها العروض، ولكنها قليلة. من ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيّات فالذنوب

فهي من مخلع البسيط، وقلما يخلو منها من حذف أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا المطلع.

ومهما يكن، فليس بين أيدينا شعر يصور المرحلة البدائية غير الناضجة في الوزن والقافية. ومن الشعراء الذين أشبهوا عبيداً امرؤُ القيس الذي يقول:

عيناكِ دمعهما سجال كأنّ شأنيهما أو شالُ

والمرقش الأكبر الذي يقول:

هل بالدّيار أن تجيب صَمَمْ لو كان رسْمٌ ناطق كلّمْ

وعدي بن زيد العبادي:

تعــرف أمْــسِ مــن لمــيس الطّلــلْ مثــل الكتــاب الــدارس الأحــول

وغيرهم كثير:

هؤلاء الشعراء الذين رويت عنهم قصائد مضطربة، رُوي عنهم قصائد أخرى مستقيمة في الوزن والقافية، مما يدل على أن ذلك كان يأتي شذوذاً وفي الندرة.

ويشير الدكتور شوقي ضيف إلى أن بعض المؤرخين للأدب والنقاد يزعم أنّ الرجز أقدم أوزان الشعر العربي، وأنه تولّد من السجع، مرتبطاً بالحداء ووقع أحقاف الإبل في أثناء سيرها وسراها في الصحراء.

والدكتور شوقي ضيف يلتقي مع كثير من الكتاب ومؤرخي الأدب في هذه النظرة. لكنه يستدرك على ما أشار إليه ـ من أنَّ الرجز أقدم أوزان الشعر ـ إنما هو مجرد فروض، ثم يقول يمكن القول: إن الرجز أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية.

ويشير د. ضيف أيضاً أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلي كان أوفر من حظ القبائل القحطانية، وحظ القبائل المضرية منه متفاوت كذلك، فهي قبائل ليست سواء فيه، ويتفق هذا القول على أهل المدن كمكة واليمامة وغيرهما.

لكن من المحقق أنه فُقِد كثير من الشعر الجاهلي، إذ عدَت عليه عوادي الرواية، وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين.

الوحدة الثانية

مدخل إلى الأدب الجاهلي

الوحدة الثانية
مدخل إلى الأدب الجاهلي

يمكن أن نستعمل كلمة (الأدب) على كل ما صاغَهُ الإنسان في قالب لغوي ليوصله إلى الآخرين. وإذا أردنا أن نخصص فيمكن أن نقول: الأدب هو الكلام الفني الجميل. وهو عاطفة جياشة متدفقة، تؤثر في القارئ والسامع على حدّ سواء. إلا أن كلمة أدب تعني لغة:

1. دعوة الناس إلى محامد الأخلاق، ونهيهم عن الأشياء القبيحة.
2. كما تعني: الظرف وحسن التناول أو العُجْب.

أما ابن خلدون فيرى أنّ الأدب علم لا موضوع له، والمقصود منه الإجادة في فني المنظوم والمنثور، وحفظ أشعار العرب وأخبارهم، والأخذ من كل علم بطرف.

وهذه المفاهيم التي ذكرناها لها شواهد من الشعر القديم، والقرآن الكريم، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم. والكتاب والأدباء فهذا بلعاء بن قيس الكناني يقول:

وإنْ أمُتْ، والفتى رهنٌ بمصرعه فقد قضيْتُ من الآداب آرابا

وهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حق نفسه: إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق. وأدبني ربي فأحسن تأديبي ويؤكد هذا المعنى الذي ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

والجو اليقي وهو من رجال العلم والأدب يقول فيه" (والأدب الذي كانت تعرفه العرب هو ما يحسن الأخلاق وفعلَ المكارم).

أما تاريخ آداب العرب، واللغة العربية، فهو تاريخ علومها، أو تاريخ ثمار عقول أبنائها، ونتائج قرائحهم، وهو تاريخ الأمة من حيث النظرة الأدبية والعلمية.

ويمكن تقسيم تاريخ آداب اللغة العربية، حسب علومها وآدابها، أو حسب العصور التي توالت عليها، فإذا بدأنا بالجاهلية فإنه يذكر تاريخ الشعر.

وقد قسمّ الدارسون العصور الأدبية إلى عدة تقسيمات منها:

(أ)

1. العصر الجاهلي.
2. المخضرَمون أو صدر الإسلام الأول.
3. العصر الأموي.
4. العصر العباسي.
5. العصر الأندلسي.
6. العصر المغولي.
7. العصر العثماني.
8. ثم العصر الحديث أو عصر النهضة.

(ب) وحاول آخرون، فقسموا تلك العصور، بصورة جديدة، وهي:

1. العصر الجاهلي.
2. صدر الدولة الإسلامية، وهو فترة الرسول والخلفاء الراشدين.
3. العصر الأموي.
4. العصر العباسي، وقد استمر عدة قرون فقالوا مثلاً:

- العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني، والثالث، والرابع، وضمّ بعضهم الأدب الأندلسي إليه كونه كان معاصراً له في الزمن وإن اختلف عنه في الخصائص والأغراض، وتأثير البيئة.

5. عصر الدول المتتابعة: ويضم الأدب المغولي والعثماني والمملوكي والأيوبي.

6. العصر الحديث أو عصر النهضة.

ونحن سنتناول بالدراسة نموذجين من الشعر الجاهلي:

الأول: بداية معلقة طرفة بن العبد، خمسة عشر بيتاً منها.

الثاني: معلقة عمرو بن كلثوم.

وبعد هذه الدراسة سنحاول أن نذكر خصائص كل شاعر ثم خصائص الشعر الجاهلي.

المعلقات

المعلقات قصائد طويلة جيدة، اختيرت من أحسن الشعر الجاهلي وأجوده قوة ومتانة، وجمال أسلوب، حتى غطت شهرتها غيرها من الشعر الجاهلي، وصار لقائليها من الذكر والشهرة ما لم يصل إليه غيرهم.

عددها: اتفق القدماء ـ غير التبريزي ـ على أنّ المعلقات سبع.

وأصحابها هم: امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى، طرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة اليشكري، وعنترة العبسي.

وخالفهم أبو زيد القرشي، فقد أخرج من هؤلاء السبعة الحارث بن حلزة، وعنترة، وزاد النابغة الذبياني والأعشى. أما التبريزي فقد جمع بين الرأيين ثم أضاف إليهم عبيد بن الأبرص فبلغت عشراً.

سبب التسمية: عرفت المعلقات بأسماء كثيرة، منها المذهبات، والسموط، والسبع الطوال، والمشهورات. والمعلقات اسم كان أكثر شيوعاً من غيره، قيل سميت بالمعلقات لأنها علقت على أستار الكعبة. وقيل لنفاستها.

أما المذهبات فلأنها كانت تكتب بماء الذهب. والسموط: تشبيهاً لها بالقلادة. والمشهورات: فبسبب شهرتها بين الناس.

شرّاحها: وبسبب هذه المكانة فقد قام العلماء عليها، يدرسونها ويشرحونها، ويقتبسون منها. والشروح المعروفة المشهورة هي:

1. شرح ابن الأنباري (ت 328 هـ).
2. شرح محمد بن أحمد بن كيسان (ت 320 هـ)
3. شرح ابي علي القالي (ت 356 هـ).
4. شرح المعلقات السبع للزوزني (ت 486 هـ).

5. شرح القصائد العشر للتبريزي (ت 502 هـ).

6. شرح القصائد التسع المشهورات لابن النحاس (ت 338 هـ).

7. شرح المعلقات السبع لأبي سعيد الضرير.

8. شرح أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي (ت 1287 هـ).

9. رجال المعلقات العشر ـ مصطفى الغلاييني وغيرهم.

مطالع المعلقات:

1. معلقة امرئ القيس:

فقا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

2. معلقة طرفة بن العبد:

لِخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

3. معلقة زهير بن أبي سلمة:

أمِنْ أم أوفى دمنةٌ لم تكلّمِ بحومانة الدّراج فالمتثلّمِ

4. معلقة لبيد بن ربيعة:

عفَت الديار محلها فمقامها بِمنى تأبّد غولُها فَرِجامها

5. معلقة عنترة العبسي:

هل غادر الشعراء من متردَّم أم هل عرفت الدار بعدتوهُّمِ

6. معلقة عمرو بن كلثوم:

ألاهبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

7. معلقة الحارث بن حلزة اليشكري:

آذنتنا ببينها أسماء رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء

8. معلقة الأعشى:

ودّع هريـرة إنّ الركـب مرتحـل وهـل تطيـق وداعـاً أيهـا الرجـل

9. معلقة النابغة الذبياني:

يـا دار ميّـة بالعليـاء فالـسند أقـوت وطـال عليهـا سـالف الأمـد

10. معلقة عبيد بن الأبرص:

أقفـر مـن أهلـه ملحـوب فالقطبيّـات فالـذنوب

طرفة بن العبد:

طرفة لقب، واسمه عمرو بن العبد بن سفيان من بني سعد بن مالك من بكر ابن وائل. وأمه وردة بنت عبد العزى.

كان قوم طرفة ينزلون بالبحرين، وكان لطرفة أخ شقيق اسمه معبد، وكان له أخوات، إحداهن الجرنق بنت بدر بن مالك، من أمه.

يُتّم طرفة من أبيه، وهو صغير، فحرمه أعمامه نصيبه من إرثه لأبيه، وظلموه حقّه، فنشأ مع أمه في بؤس وفقر.

قال طرفة الشعر في وقت مبكر، وقيل: إنَّ طرفة كان يرعى إبلاً له ولأخيه، وكان كثيراً ما يلهو عنها بالشعر ونظمه، فطلب إليه أخوه ـ لافتاً نظره ـ أن يهتم بالإبل حتى لا تضيع منه، ولا تنهب، وكان طرفة قد غضب من ذلك حيث كان شعره ـ في ظنه ـ هو الذي يمكن أن ينقذ له إبله، ولما أخذت إبله فعلاً استعان بالأمير بن عمرو وقابوس ابني المنذر الثالث، ملك الحيرة، فعوضاه عنها إبلاً مكانها.

وطرفة شاعر مُقلّ، لكنه بلغ من جودة الشعر ما بلغه شعراء آخرون بكثرة شعرهم، وطول أعمارهم، وهو من أصحاب المعلقات المقدّمين بإجماع الآراء.

برع في موضوعات عدة منها الحماسة، والفخر، والهجاء، والحكمة خاصّة. وهو يرى أن الحياة فرصة سانحة، ينبغي للإنسان أن يستغلها ويستفيد منها، إذ ليس بعد الموت ـ عنده ـ حياة أخرى.

الشاعر القتيل:

ولمقتل طرفة رواية، يقال: إنّ عمرو بن هند كتب لكل من طرفة والمتلمس، وكان في نفسه موجدة عليهما، فكتب كتابه إلى عامله في البحرين، وأوهمها بالعطاء الجزيل، وأمرهما أن يمضيا إليه في الحال. وفي أثناء سيرهما فتح المتلمس كتابه فوجد فيه أمراً بقتله، فمزق الكتاب، وألقاه في النهر، ونصح طرفة أن يفعل مثله، فرفض، ولما وصل إلى البحرين نصحه وإليها بالهرب، فرفض، فحبسه، وكتب إلى الملك: (ابعث إلى عملك من تريد فإني غير قاتله). فبعث عمرو برجل آخر من تغلب، فأخبر طرفه أنه سيقتله بأمر الملك، وعليه أن يختار الميتة التي يريد.

وكان جواب طرفة (إن كان لا بد فاسقني الخمر وافصدني) ففعل به ذلك. فما زال ينزف حتى مات سنة (569م).

مذهب طرفة:

يتضمن مذهبه أمرين:

الأول: اجتماعي: وهو يتطلع إلى الحياة بنظرة شمولية، ويعتبر نفسه لقومه قبل أن يكون لنفسه، سواء أكان ذلك في الحرب أم في السلم، فهو لا يختبئ ولا يتوارى، ولكن يقيم على الأماكن العالية؛ يراه السائل والفقير. وهذا المذهب وليد النزعة الإنسانية المثالية.

الثاني: حرص الشاعر على كرامة النفس وعزتها، فهو كريم، ولا معنى للبخل مع الموت، وهو صاحب ثقة بالنفس، واعتداد بالذات، وهو رجل إقدام وصدق.

أبيات من معلقته:

لِخَولَـــةَ أطْـــلالٌ ببُرقَـــةِ ثَهمَـــدِ

تَلـوحُ كَبَـاقي الوَشْـمِ في ظـاهِرِ اليَـدِ[1]

وقُوفـاً بهـا صَـحْبي علـيَّ مَطِـيَّهُمْ

يَقولـــونَ: لا تَهْلِـــكْ أســـىً وتَجَلّـــد[2]

كـــأنَّ حُـــدُوجَ المالِكيَّـــةِ غُـــدوةً

خَلايـــا سَـــفينٍ بالنَّواصِـــفِ مِـــن دَدِ[3]

---

(1) خولة: إمرأة من كليب، ذكر ذلك هشام بن الكلبي – أطلال: جمع طلل وهي آثار الديار أو الرسوم الدارسة. والبرقة والبرقاء: مكان اختلط ترابه بالحجارة أو الحصى. الثهمد: اسم موضع. تلوح: تلمع. الوشم: العلامة، ويكون بغرز ظاهر اليد أو غيرها.

ومعنى البيت: لهذه المرأة (خولة) أطلال ديار بالموضع الذي يختلط فيه الحصى بالتراب فتلمع تلك الأطلال لمعان بقايا الوشم في ظاهر الكف..

(2) وقوفاً: منصوبة على الحال. أو نائب مفعول مطلق. المطي مفعول به للمصدر وقوف. التجلّد: التصبّر. يقول الشاعر: قد وقفوا عليّ رواحلهم من أجلي، أي بسببي، وهم يقولون: لا تهلك بسبب الحزن، وشدة الجزع، بل عليك أن تصبر وتتحمل.

(3) حُدوج: جمع حَدْج، وهو مركب من مراكب النساء. المالكية: منسوبة إلى بني مالك (القبيلة). والغدوة: من الغداة أي في وقت مبكر وخلايا: جمع خلية وهي السفينة العظيمة، والسفين جمع سفينة، وهي معروفة. النواصف: جمع ناصفة وهي تتسع من جهة الأودية.

والمعنى: كأن مراكب خولة (التي أحبها الشاعر) المالكية، غدوة فراقها، نواحي وادي دَد، سفن عظيمة. أي أن الشاعر شبه الإبل وعليها الهوادج بالسفن العظيمة.

عَدَوْلِيّــةٌ أو مِــن سَــفينِ ابــنِ يــامِنٍ
يَجــورُ بهــا المَــلاّحُ طَــوراً ويَهْتَــدي[1]

يَــشُقّ حَبَــابَ المــاءِ، حَيزومُهــا بهــا
كمــا قــسَمَ التُّــربَ المُفايــلُ باليَــدِ[2]

وفي الحــيّ أحــوى يَنفُضُ المَــردَ شــادنٌ
مُظــاهِرُ سِــمْطَيْ لُؤلُــؤٍ وَزَبَرجَــدِ[3]

---

(1) عدولية: نسبة إلى قبيلة من أهل البحرين، وابن يامن: رجل من أهلها. الجور: العدول عن الطريق ـ بها: الباء للتعدية ـ.

والمعنى: هذه السفن التي تشبهها هذه الإبل، من هذه القبيلة، أو من سفن هذا الرجل، والملاّح يجريها مرة على استواء واهتداء، وتارة يعدِل بها فيميلها عن الاستواء، كذلك الحداة يسوقون هذه الإبل على الطريق الصحيح، وتارة يميلون بها عن الطريق لاختصار المسافة.

(2) حَباب الماء: أمواجه. الحيْزوم: الصدر والجمع حيازيم. والفيال: نوع من اللعب، وهو أن يجمع التراب، فيدفن فيه شيئاً، ثم يقسم التراب نصفين، ويسأل عن الدفين أي هو؟ فمن أصاب فهو الرابح.

والمعنى: أن صدور تلك الإبل تشق أمواج الماء نصفين، كما يقسم اللاعب كومة التراب إلى نصفين ليسأل عن الشيء المدفون، فمن أصاب فهو الرابح.

(3) الحي: القبيلة. أحوى: الذي في شفتيه سُمرة، وهو كذلك ظبيٌ في لونه حوَّة. الشادِن أحوى: لشدة سواد أجفانه ومقلتيه، وهو الغزال القوي. المُظاهر: الذي لَبس ثوباً فوق ثوب. السِّمْط: الخيط الذي نظمت فيه الجواهر، والجمع سموط.

والمعنى: في الحي حبيب يشبه الغزال الأحوى في كحل عينيه، وسُمرة الشفتين في حال نفض الغزال ثمر الأراك لأنه يمدُّ عنقه في تلك الحال ثمّ صرّح أنه يريد إنساناً.

. خَــذولٌ تُراعــي رَبْرَبــاً بِخَميلــةٍ

تَنــاوَلُ أطــرافَ البَريــرِ، وتَرتَــدي[1]

وتَبــسِمُ عــنْ ألمــى، كــأنّ مُنَــوِّراً

تَخَلّــلَ حُــرَّ الرّمْــلِ دِعْــصٌ لــه نَــدي[2]

سَــقَتْهُ إِيــاةُ الــشّمسِ إلاّ لِثاتِــهِ

أُسِــفَّ وَلم تَكْــدِمْ عليــه بِإِثمِــد[3]

---

(1) خذول: على صيغة فعول، بمعنى اسم الفاعل خاذل أي قد خذلت أولادها. تراعي ربْرباً: أي ترعي معه القطيع من الظباء. الخميلة: رملة منبتة، قيل هي أرض ذات شجر. البريز: ثمر الأراك المدرك البالغ.

والمعنى: هذه الظبية هي ظبية خذلت أولادها، وذهبت مع صواحبها في القطيع ترعى في أرض ذات شجر ونبات، وإنما خصَّ تلك الحال لمدّ عنقها.

(2) الألمى: الذي يضرب لون شفتيه إلى السواد، وهو جمع ومفرده لمياء. البسم والابتسام مصدران بمعنى التبسم. منوّراً: الأقحوان المنوّر. حُرّ كل شيء: خالصه. الدِّعص: الكثيب من الرمل. النّدى: دون الابتلال.

والمعنى: تبسم الحبيب عن ثغر ألمى الشفتين كأنه أقحوان خرج نوره في كثيب من الرمل، وهي ندى، ليكون أبلغ في بريق الثغر، وتقدير المعنى: كأن به أقحواناً منوراً تخلل دعص له ندى حر الرمل ثغرها.

(3) أياة الشمس: شُعاعُها. اللثّة: مفرز الأسنان والجمع، اللّثاث. الأسفاف: من سفَفْت الشيء سفاً. والأثمد: الكحل. الكدْم: العضّ. ثمَّ وصفَ ثغرها فقال: سقاه شعاع الشمس وكأنها أعارتْه ضوءها ثم ذرَّ عليه الكحل. ونساء العرب تفعل ذلك ليكون أشبه بلمعان الأسنان.

وَوَجْهٌ كأنّ الشّمسَ ألقتْ رِداءَها
عليه، نَقِيُّ اللّونِ لمْ يَتَخَدّدِ[1]

وإنّي لأمضي الهمّ، عند احتِضاره
بعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَروحُ وتَغتَدي[2]

أمُونٍ كألْواحِ الأرانِ نَصَأتُها
على لاحِبٍ كأنّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ[3]

جَماليّةٍ وجْناء تَردي كأنّها
سَفَنَّجَةٌ تَبري لأزعَرَ أربَدِ[4]

---

(1) التخدُّد: التشنج. نقيّ اللون: صافي اللون.
والمعنى: أنها تبسم عن وجه كأن الشمس كَسَتْهُ ضياءَها وجمالها، ثم ذكر وجهها النقي اللون غير المجعد والمتشنج، كامل الضياء والنقاء.

(2) الاحتضار: الحضور. العَوْجاء: الناقة النشيطة التي لا تستقيم في سيرها. المِرقال: بين السير والعدو.
والمعنى: إني لأنفذ همي عند حضورها، باتعاب ناقة مسرعة في سيرها. أي أنها تصل سير الليل والنهار.

(3) الأمون: التي يؤمَن عثارها. الأران: التابوت العظيم. نصأتُها: زجرتها. اللاحب: الطريق الواضح. والبرجد: كساء مخطط.
والمعنى: هذه الناقة الموثقة الخلق، يُؤمن عثارها في سيرها وعَدوها، وعظامها كألواح التابوت العظيم؛ يريد عرض عظامها بألواح التابوت، ثمّ شبّه الطريق بالكساء المخطط لأن فيه أمثال عجيبة.

(4) جمالية: ناقة تُشبه الجمل في وثاقة الخلق. الوجناء: المكتنزة اللحم. الرديان: عدو الحمار بين متمرغه وإربه، ثم استعير للعدو. السفنّجة: النعامة. تبري: تعرض الأزعر قليل الشعر. الأربد: الذي لونه لون الرمادي.
والمعنى: أنه يمضي همَّه بناقة تشبه الجمل في خلُقه، تعدو كأنها نعامة، تعرض الظليم قليل الشعر. وفيه تشبيه.

تُبــاري عِتاقــاً ناجيــاتٍ، وأتبَعَــتْ

وظيفــاً وَظيفــاً فَــوق مَــورٍ مُعبَّــدِ[1]

تَرَبَّعَــتِ القُفّــينِ في الــشَّولِ تَرتَعــي

حَــدائِقَ مَــوليّ الأسِــرّةِ أغْيَــدِ[2]

يتضح من الأبيات أن شعر طرفة يتميز بالعقل والعاطفة والخيال، أما أسلوبه في شعره فليس بالأسلوب المنطقي في تركيب الأفكار، لكنه يتنوع بحسب قصص الحال. فهو يشتد وقت الشدة، ويلين وقت اللين، والمواقف العاطفية.

يلائم بين اللفظ والمعنى، وهو صادق الفن، قوي الشاعرية.

(1) تباري: من المباراة والتفضيل. العتاق: الكرام الناجيات: المسرعات. الوظيف: من الرسغ إلى الركبة. المور: الطريق. المعبد: المذلّل.

والمعنى: أنها تباري إبلاً كريمة سريعة، وتتبع وظيفة رجلها وظيف يدها، فوق طريق مذلل بالسلوك والوطء بالأقدام والمناسم.

(2) التربع: رعي الربيع، والإقامة بالمكان. والقُف: ما غلُظ من الأرض وارتفع. والجمع قفاف. الشول: النوق التي جفّت ضروعها والواحدة شائلة. الأغيد: الناعم الخلق، والمؤنث غيداء، والجمع الغيد.

والمعنى: قد رعت هذه الناقة أيام الربيع كلأ القفين. والمراد بهما قُفّان مُعينان معروفان. وصف الناقة أيام الربيع يتكون ذلك أوفر للحمها، ثم وصف مرعاها بأنه في وادٍ اعتادته الأمطار، ومع ذلك فهو طيب التربة.

معلقة عمرو بن كلثوم

عمرو بن كلثوم:

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب من بني تغلب، وأمه ــ أيضاً ــ تغلبية، فهي بنت المهلهل الشاعر.

ولد عمرو بن كلثوم في بدايات القرن السادس الميلادي، وسادَ قومه صغيراً، وهو ابن الخامسة عشرة من عمره.

كان فارساً شجاعاً، معجباً بنفسه، وكان بينه وبين الملك عمرو بن هند علاقات طيبة وقوية، بل كان يزور الملك في الحيرة، وينشده الشعر، ولكن لا يمدحه. ويبدو أن شيئاً من القطيعة والوحشة قد وقع بينهما، ثمّ اتفق أن قتل عمرو بن كلثوم الملك عمرو بن هند، في حديث طويل. يعتبر المؤرخون عمرو بن كلثوم من المعمرين، ولعلّه عاش مئة سنة، ثم مات قبل انتهاء القرن السادس الميلادي.

عمرو بن كلثوم شاعر مطبوع لكنه مقلّ، وما وصلنا من شعره إلا المعلقة، وبضع مقطعات، والمعلقة ترجع إلى زمنين منفصلين. بعضها قبل مقتل الملك، وبعضها الآخر بعد مقتل الملك.

أما موضوعات المعلقة فتدور ــ كباقي المعلقات ــ حول الحماسة، والفخر، والغزل، ووصف الخمر، وشيء من الحكمة.

مناسبة نظم القصيدة:

رغب الملك عمرو بن هند أن يصلح بين قبيلتي تغلب وبكر، فجمع بينهما ثم أخذ من كل قبيلة مائة فارس، جعلهم عنده رهائن، فكانوا معه دائماً في الإقامة والرحيل، وإذا غدرت إحدى القبيلتين بالأخرى، أقاد الملك عمرو بن هند ذلك المقتول

من رهائن القبيلة المعتدية، وذات يوم سيّر الملك ركباً من تغلب وبكر إلى جبال طيء، فأجلى البكريون التغلبيين عن الماء، ودفعوهم إلى الصحراء، فتاهوا فيها، وماتوا عطشاً. غضب بنو تغلب وطلبوا ديات أبنائهم، فرفضت بكر، فاحتكموا إلى عمرو بن هند. وفي يوم التقاضي انتدبت تغلب شاعرها وسيدها عمرو بن كلثوم للدفاع عنها، وانتدبت بكر النعمان بن هرم، وهو أحد سادتها. وقع جدال بين النعمان بن هرم وبين الملك عمرو بن هند، غضب فيه الملك فطرد النعمان بن هرم من قصره، وعليه فقد أنشد عمرو بن كلثوم قسماً من معلقته. أما القسم الثاني فقد زاده عليها بعد قتله عمرو بن هند، على أثر محاولة أم الملك استخدام ليلى أم الشاعر.

قيمة المعلقة:

لهذه المعلقة قيمة تاريخية، إذ تدلنا على حياة العرب الدينية، والاجتماعية، والعادات، والصناعات والألعاب، وتخبرنا كذلك عن طواف النساء حول الصنم، وعن الرقص الديني، كما تخبرنا عن مرافقة النساء للرجال في القتال، وعن لعب الصبيان بسيوف الخشب، وقذف الكرة. وغير ذلك من الفوائد التاريخية.

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

قال عمرو بن كلثوم يذكر أيام بني تغلب، ويفتخر بهم:

أَلاَ هُبِّـــي بِـــصَحْنِكِ فاصْـــبَحِينَا ... وَلا تُبْقِـــي خُمُـــورَ الأَنْـــدَرِينَا[1]

(1) هَبّ من نومه يَهُبُّ: إذا استيقظ. والصحن: القدح العظيم والجمع: صحون. والصبح: سقى الصبوح. الفعل: صبح يصبح. أبقيت الشيء وبقيته: بمعنى. والأندرون: قرى بالشام.
(يقول): ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية، واسقيني الصَّبوحَ بقدحك العظيم، ولا تدخري خمر هذه القرى.

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا ... إِذا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخِينَا[1]

تَجُورُ بِذِي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ ... إِذا مَا ذاقَهَا حَتَى يَلِينَا[2]

تَرَى اللحِزَّ إذا أُمِرَّتْ ... عليْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِيناً[3]

صَبَنْتِ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍ و ... وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا اليَمِينا[4]

---

(1) شعشعت الشراب: مزجته بالماء. والحص: الورس. نبت له نوار أحمد يشبه الزعفران. ومنهم من جعل سخينا صفة، ومعناه الحار، من سخن يسخن سخونة. ومنهم من جعله فعلاً، من سخى سخاء. وفيه ثلاث لغات: إحداهن: ما ذكرنا. والثانية سخو يسخو. والثالثة: سخا يسخو سخاوة.

(يقول): اسقينيها ممزوجة بالماء، كأنها من شدة حمرتها بعد امتزاجها بالماء، ألقي فيها نور هذا النبت الأحمر، وإذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا، جُدْنا بعقائل أموالنا، وسمحنا بذخائر أعلاقنا. هذا إذا جعلنا سخينا فعلاً، وإذا جعلناه صفة، كان المعنى: كأنها حال امتزاجها بالماء، وكون الماء حاراً، نور هذا النبت. ويروي: (شحينا) بالشين المعجمة، أي إذا خالطها الماء مملوءة به. والشحن: الملء. والفعل: شحن يشحن. والشحين: بمعنى المشحون، كالقتيل بمعنى المقتول. يريد أنها حال امتزاجها بالماء، وكون الماء كثيراً، تشبه هذا النور.

(2) يمدح الخمر، ويقول: تميل صاحب الحاجة عن حاجته وهواه، إذا ذاقها، حتى يلين، أي هي تنسي الهموم والحوائج أصحابها، فإذا شربوها لانوا، ونسوا أحزانهم وحوائجهم.

(3) اللحز: الضيق الصدر. والشحيح: البخيل الحريص، مهينا لماله فيها، أي والأشحاء. والشحاح أيضاً: مثل الشحيح. والفعل: شح يشح. والمصدر: الشح، وهو البخل معه حرص.

(يقول): ترى الإنسان الضيق الصدر البخيل الحريص، مهيناً لماله فيها، أي في شربها، إذا أمرت الخمر عليه، أي إذا أديرت عليه.

(4) الصبن: الصرف. الفعل: صبن يصبن.

(يقول): مَّرقْتِ الكأس عنا يا أمَّ عمرو، وكان مجرى الكأس على اليمين فأجريتها على اليسار.

وَمَـــا شَـــرُّ الثَّلاثَـــةِ أُمَّ عمـــرٍ و بِـــصَاحِبِكِ الـــذِي لا تَـــصْبَحِينا[1]

وَكَـــأْسٍ قَـــدْ شَـــرِبْتُ بِبَعْلَبَـــكٍ وأُخْـــرَى فِي دِمَـــشْقَ وقاصِـــرِينَا[2]

وَإِنَّـــا سَـــوْفَ تُـــدْرِكُنا المَنايَـــا مُقَـــدَّرَةً لَنـــا ومُقَـــدَّرِينا[3]

قِفِـــي قَبْـــلَ التَّفَـــرُّقِ يَـــا ظَعِينـــا نُخَبِّـــرْكِ الـــيَقِينَ وتُخْبِرينـــا[4]

قَفَـــي نَـــسْأَلْكِ هَـــلْ أَحْـــدَثْتِ صَـــرْماً لِوَشْـــكِ البَـــيْنِ أَمْ خُنْـــتِ الأَمِينـــا[5]

بِيَـــومِ كَرِيهـــةٍ ضَـــرْباً وطَعْنـــاً أَقَـــرَّ بِـــهِ مَوَالِيـــكِ العُيُونـــا[6]

---

(1) (يقول): ليس بصاحبك الذي لا تسقينه الصبوح، شر هؤلاء الثلاثة الين تسقينهم. أي ليست شر أصحابي، فكيف أخرتني وتركت سقي الصبوح.

(2) (يقول): سوف تدركنا مقادير موتنا، وقد قدرت تلك المقادير لنا، وقدرنا لها، والمنايا: جمع المنية، وهي تقدير الموت.

(3) (يقول): سوف تدركنا مقادير موتنا، وقد قدرت تلك المقادير لنا، وقدرنا لها، والمنايا: جمع المنية، وهي تقدير الموت.

(4) أراد: ياظعينة فرخم، والظعينة: المرأة في الهودج. سميت بذلك، لظعنها مع زوجها، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. ثم كثر استعمال هذا الاسم للمرأة حتى يقال لها فلعينة وهي في بيت زوجها.

(يقول): فقي مطيتك أيتها الحبيبة الظاعنة، نخبرك بما قاسينا بعدك، وتخبرينا بما لاقيت بعدنا.

(5) الصرم: القطيعة. والوشك: السرعة. والوشيك: السريع. والأمين: بمعنى المأمون. نسأل: مجزوم جواب الطلب، والكاف لخطاب المؤنث.

(يقول): فقي مطيتك نسألك: هل أحدثت قطيعة لسرعة الفراق ؟ أم هل خنت حبيبك الذي تؤمن خيانته ؟ أي هل دعتك سرعة الفراق إلى القطيعة، أو إلى الخيانة في مودة من لا يخونك في مودته إياك.

(6) الكريهة: من أسماء الحرب. والجمع الكرائه. سميت بها، لأن النفوس تكرهها. وإنما لحقتها التاء، لأنها أخرجت مخرج الأسماء، مثل النطيحة والذبيحة، ولم تخرج مخرج النعوت، مثل امرأة قتيل، وكف خضيب، ونصب ضرباً وطعناً على الصدر، أي يضرب فيه ضرباً، ويطعن فيه طعناً. قولهم: (أقر الله عينك) قال الأسمعي: معناه أبرد الله دمعك، أي سرك غاية السرور. وزعم أن دمع السرور بارد، ودمع الحزن حار، وهو عندهم مأخوذ من القرور، وهو الماء البارد. ورد عليه أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب هذا القول. وقال: الدمع كله حار جلبه فرح أو ترح.

وَإِنَّ غَـــداً وَإِنَّ اليَـــوْمَ رَهْـــنٌ وبَعْـــدَ غَـــدٍ بِمَـــا لا تَعْلَمِينـــا[1]

تُرِيـــكَ إِذا دَخَلْـــتَ عَلَـــى خَـــلاء وقَـــدْ أَمِنَـــتْ عُيُـــونَ الكاشِـــحِينا[2]

ذِراعَـــيْ عَيْطَـــلٍ أَدْمـــاءَ بِكْـــرٍ هِجَّـــانِ اللَّـــوْنِ لَـــمْ تَقْـــرَأْ جَنِينـــا[3]

=

وقال أبو عمرو الشيباني: معناه أنام الله عينك، وأزال سهرها، لأن استيلاء الحزن داع إلى السهر، فالإقرار، على قوله إفعال، من قر يقر قراراً، لأن العيون تقر في النوم، وتطرف في السهر.

وحكى ثعلب عن جماعة من الأئمة: أن معناه أعطاك الله مُناكَ ومُبتغاكَ، حتى تقر عينك عن الطماح إلى غيره.

(وتحرير المعنى): أرضاك الله، لأن المترقب إلى الشيء يطمح ببصره إليه، فإذا ظفر به قرت عينه عن الطماح إليه.

(يقول): نخبرك بيوم حرب، كثر فيه الضرب والطعن، فأقر بنو أعمامك عيونهم في ذلك اليوم، أي فازوا ببغيتهم، وظفروا بمناهم من قهر الأعداء.

(1) أي بما لا تعلمين من الحوادث.

(يقول): فإن الأيام رهن بما لا يحيط علمك به، أي ملازمة له.

(2) الكاشح: المضْمِر العداوة في كشحه، وخص العرب الكشح بالعداوة، لأنه موضع الكبد، والعداوة عندهم تكون في الكبد. وقيل: بل سمي العدو كاشحاً، لأنه يكشح عن عدوه؛ أي يعرض عنه، فيوليه كشحه. يقال: كشح عنه يكشح كشحاً.

(يقول): تريك هذه المرأة إذا أتيتها خالية، وأمنت عيون أعدائها.

(3) العَيْطَل: الطويل العنق من النوق. والأَدْماءَ: البيض منها، والأدمة: البياض في الإبل. والبكر: الناقة التي حملت بطناً واحداً. ويروي: بكر، بفتح الباء وهو الفتى من الإبل، وكسر الباء على الروايتين. ويروى: (تربعت الأجارع والمتونا) تربعت: رعت ربيعاً. الأجارع: جمع الأجرع، وهو المكان الذي فيه جرع. والجرع: جمع جرعة، وهي دعص من الرمل غير منبت شيئاً. والمتون: جمع متن، وهو الظهر من الأرض. والهجان: الأبيض الخالص البياض، يستوي فيه الواحد والتثنية والجمع، وينعت به الإبل و الرجال وغيرهما. لم تقرأ جنيناً: أي لم تضم في رحمها ولداً.

=

وثَــدْياً مِثْــلَ حُــقِّ العَــاجِ رَخْــصاً حَــصَاناً مِــنْ أَكُــفِّ اللامِــسِينا[1]
ومَتْنَــيْ لَدْنَــةٍ سَــمَقَتْ وَطالَــتْ رَوَادِفُهــا تَنُــوء بِمَــا وَلِينــا[2]
وَمَأْكَمَــةً يَــضِيقُ البَــابُ عَنْهــا وكَــشَحاً قَــدْ جُنِنْــتُ بــهِ جُنُونــاً[3]
وَسَــارِيَتَيْ بَلَــنْطٍ أَوْ رُخــامٍ يَــرِنُّ خَــشَاشَ حَلْيِهِمَــا رَنِينــا[4]
فَمــا وَجَــدَتْ كَوَجْــدِي أُمُّ سَــقْبٍ أَظَلَّتْــهُ فَرَجَّعَــتِ الحَنِينــا[5]

=

(يقول): تريك ذراعين ممتلئين لحماً، كذراعي ناقة طويلة العنق، لم تلد بعد، أو رعت أيام الربيع في مثل هذا الموضع. ذكر هذا مبالغة في سمنها، أي ناقة سمينة لم تحمل ولداً قط، بيضاء اللون.

(1) رخصا: لينا. حصانا: عفيفة.

(يقول): وتريبك ثدياً مثل حق من عاج، بياضاً واستدارة، محرزة من أكف من يلمسها.

(2) اللَّدن: اللين، والجمع: لُدْن. أي ومتنى قامة لدنة. السموق: الطول.

والفعل: سمق يسمق: والرادفتان والرانفتان: فرعا الأليتين. والجمع: الروادف والروانف. والنوء: النهوض في تثاقل. والولي: القرب. الفعل: ولى يلي.

(يقول): وتريك متنى قامة طويلة لينة، تثقل أردافها مع ما يقرب منها، وصفها بطول القامة، وثقل الأرداف.

(3) المأكمة والمأكمة: رأس الورك. والجمع: المآكم.

(يقول): وتريك روكاً يضيق الباب عنها، لعظمها وضخمها وامتلائها باللحم، وكشحا قد جننت بحسنه جنوناً.

(4) البَلَنْط: العاج. والسارية: الأسطوانة. والجمع: السواري.

(يقول): وتريك ساقين كأسطوانتين من عاج أو رخام، بياضاً وضخماً، بصوت حليهما، أي خلاخيلهما، تصويتاً.

(5) قال القاضي أبو سعيد السيرافي: البعير: بمنزلة الإنسان، والجمل: بمنزلة الرجل، والناقة: بمنزلة المرأة، والسقف: بمنزلة الصبي، والحائل: بمنزلة الصبية، والحوار: بمنزلة الولد، والبكر: بمنزلة الفتى، والقلوص: بمنزلة الجارية. والوجد: الحزن. والفعل: وجد يجد. والترجيع: ترديد الصوت. والحنين: صوت المتوجع.

=

وَلا شَـــمْطَاءُ لَـــمْ يَتْـــرُكْ شَـــقاها ... لَهَـــا مِـــنْ تِـــسْعَةٍ إلاَّ جَنِينـــا [1]

تَـــذَكَّرْتُ الـــصِّبَا وَاشْـــتَقْتُ لَمَّـــا ... رَأَيْـــتُ حُمُولَهـــا أُصُـــلاً حُـــدِينا [2]

فَأَعْرَضَـــتِ اليَمامَـــةُ وَاشْـــمَخَرَّتْ ... كاسْـــيَافٍ بِأَيْـــدِي مُـــصْلِتِينا [3]

أَبَـــا هِنْـــدٍ فَـــلاَ تَعْجَـــلْ علَيْنَـــا ... وَأَنْظِرْنَـــا نُخَبِّـــرْكَ اليَقِينـــا [4]

بِأَنَّـــا نُـــورِدُ الرايـــاتِ بِيـــضاً ... وَنُـــصْدِرُهُنَّ حُمْـــراً قَـــدْ رَوِينـــا [5]

وَأَيَّـــامٍ لَنَـــا غُـــرٍّ طِـــوال ... عَـــصَيْنَا المَلْـــكَ فِيهَـــا أَنْ نَـــدِينا [1]

=

(يقول): فما حزنت حزناً مثل حزني ناقة أضلت ولدها، فرددت صوتها، مع توجعها في طلبها. يريد أن حزن هذه الناقة، دون حزنه لفراق حبيبته.

(1) الشمط: بياض الشعر. والحَنين: المستور في القبر هنا.

(يقول): ولا حزنت كحزني عجوز لم يترك شقاء جدها لها من تسعة بنين، إلا مدفوناً في قبره، أي ماتوا كلهم ودفنوا. يريد أن حزن العجوز التي فقدت تسعة بنين، دون حزنه عند فراق عشيقته.

(2) الحُمول: جمع حامل. يريد إبلها.

(يقول): تذكرت العشق والهوى، واشتقت إلى العشيقة، لما رأيت حمول إبلها سيقت عشياً.

(3) أعرضت: ظهرت. وعرضت الشيء: أظهرته. ومنه قوله عز وجل: (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً)، وهذا من النوادر، عرضت الشيء فأعرض، ومثله: كببته فأكب، ولا ثالث لهما فيما سمعنا. واشمخرت: ارتفعت. أصلت السيف: سللته.

(يقول): فظهرت لنا قرى اليمامة، وارتفعت في أعيننا كأسياف بأيدي رجال سالين سيوفهم. شبه ظهور قراها بظهور أسياف مسلولة عن أغمادها.

(4) (يقول): يا أبا هند، لا تعجل علينا، وأنظرنا نخبرك باليقين من أمرنا وشرفنا. يريد عمرو بن هند، فسكناه. أداة النداء محذوفة جوازاً.

(5) الراية: العلم. والجمع: الرايات والراي.

(يقول): نخبرك باليقين من أمرنا، بأنا نورد أعلامنا الحروب بيضاً، ونرجعها منها حمراً، قد روينا من دماء الأبطال. هذا البيت تفسير اليقين من البيت الأول.

وَسَـــيِّدِ مَعْـــشَرً قَـــدْ تَوَّجُـــوهُ بِتـــاجِ المُلْـــكِ يَحْمِـــي المحْجَرِينَـــا[2]

تَرَكْنَـــا الخَيْـــلَ عاكِفَـــةً علَيْـــهِ مُقَلَّـــدَةً أَعِنَّتَهَـــا صُـــفُونا [3]

وَأَنْزَلْنَـــا الْبُيُـــوتَ بِـــذِي طُلُـــوحٍ إلى الـــشَّامَاتِ نَنْفِـــي المُوعِـــدِينَا [4]

وَقَـــدْ هَـــرَّتْ كِـــلابُ الحَـــيِّ مِنّـــا وَشَـــذَّبْنَا قَتَـــادَةَ مَـــنْ يَلِينـــا [5]

مَتَـــى نَنْقُـــلْ إلى قَـــوْمٍ رَحَانـــا يَكُونُـــوا فِي اللِّقَـــاءِ لَهَـــا طَحِينـــا [6]

يَكُـــونُ ثِفَالُهَـــا شَـــرْقِيَّ نَجْـــدٍ وَلُهْوَتُهَـــا قُـــضَاعَةَ أَجْمَعِينـــا [7]

=

(1) (يقول): نخبرك بوقائع لنا مشاهير كالغر من الخيل، عصينا الملك فيها، كراهية أن نطيعه ونتذلل له. والأيام: الوقائع هنا. والغر: بمعنى المشاهير كالخيل الغر، لاشتهارها فيما بين الخيل. وقوله (أن ندين): أي كراهية أن ندين. فحذف المضاف. هذا على قول البصريين. وقال الكوفيون: تقديره: أن لا ندين أي لئلا ندين، فحذف لا. الواو: واو رُبّ.

(2) (يقول): ورب سيد قوم متوج بتاج الملك، حام للملجئين، قهرناه. وأحجرته: ألجأته..

(3) العكوف: الإقامة. والفعل: عكف يعكف. والصفون: جمع صافن. وقد صفن الفرس يصفن صفوناً: إذا قام على ثلاث قوائم، وثنى سنبكه الرابع.

(يقول): قتلناه وحبسنا خيلنا عليه، وقد قلدناها أعنتها في حال صفونها عنده.

(4) (يقول): وأنزلنا بيوتنا بمكان يعرف بذي طلوح، إلى الشامات، ننفي من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا.

(5) القتاد: شجر ذو شوك. والواحدة منها: قتادة. والتشذيب: نفي الشوك والأغصان الزائدة والليف عن الشجر. يلينا: أي يقرب منا.

(يقول): وقد لبسنا الأسلحة حتى أنكرتنا الكلاب، وهرت لإنكارها إيانا، وقد كسرنا شوكة من يقرب منا من أعدائنا. استعار لفل الغرب، وكسر الشوكة، تشذيب القتادة.

(6) أراد بالرحى: رحى الحرب، وهي معظمها.

(ويقول): متى حاربنا قوماً قتلناهم. لما استعار للحرب اسم الرحى، استعار لقتلاها اسم الطيحن.

(7) الثفال: خرقة أو جلدة تبسط تحت الرحى، ليقع عليها الدقيق. واللهوة: القبضة من الحب تلقى في فم الرحى. وقد ألهيت الرحى: ألقيت فيها لهوة.

يقول: تكون معركتنا الجانب الشرقي من نجد، وتكون قبضتنا قضاعة أجمعين، فاستعار للمعركة اسم الثفال، وللقتلى اسم اللهوة، ليشاكل الرحى والطحين.

نَـــزَلْتُمْ مَنْـــزِلَ الْأَضْـــيَافِ مِنَّـــا فَأَعْجَلْنَـــا الْقِـــرَى أَنْ تَـــشْتُمُونا[1]
قَرَيْنَـــاكُمْ فَعَجَّلْنَـــا قِـــرَاكُمْ قُبَيْـــلَ الـــذَّبْحِ مِـــرْدَاةً طَحُونَـــا[2]
نَغُـــمُّ أُنَاسَـــنَا وَنَعِـــفُّ عَـــنْهُمْ وَنَحْمِـــلُ عَـــنْهُمُ مَـــا حَمَّلُونَـــا[3]
نُطَـــاعِنُ مَـــا تَرَاخَـــى النَّـــاسُ عَنَّـــا وَنَـــضرِبُ بِالـــسُّيُوفِ إِذا غُـــشِينَا[4]
بِـــسُمْرٍ مِـــنْ قَنَـــا الخَطِّـــيِّ لُـــدْنٍ ذَوَابِـــلَ أَوْ بِـــيض يَخْتَلِينَـــا[5]
كَـــأَنَّ جَمَـــاجِمَ الْأَبْطَـــالِ فِيهَـــا وُسُـــوقٌ بِالْأَمَـــاعِزِ يَرْتَمِينَـــا[6]

---

(1) (يقول): نزلتم منزلة الأضياف، فعجلنا قراكم، كراهية أن تشتمونا، ولكي لا تشتمونا. أضياف: جمع ضيف، على وزن أفعال.
والمعنى: تعرضتم لمعاداتنا كما يتعرض الضيف للقرى، فقتلناكم عجالاً، كما يحمد تعجيل قرى الضيف. ثم قال تهكماً بهم واستهزاء: أن تشتمونا، أي قريناكم على عجلة، كراهية شتمكم إيانا إن أخرنا قراكم.

(2) المرادة: الصخرة التي يكسر بها الصخور. والمرداة أيضاً: الصخرة التي يرمي بها. والردى: الرمي. والفعل: ردى يردى. فاستعار المراداة للحرب. والطحون: فعول من الطحن. (مرداة طحونا): أي حرباً أهلكتهم أشد إهلاك.

(3) (يقول): نعم عشائرنا بنوالنا وسيبنا، ونعف عن أموالهم، ونحمل عنهم ما حملونا من أثقال حقوقهم ومؤنهم. والله أعلم.

(4) التراخي. البعد. الغشيان: الإتيان.
(يقول): نطاعن الأبطال ما تباعدوا عنا، أي وقت تباعدهم عنا، ونضربهم بالسيوف إذا أتينا، أي أتونا، فقربوا منا. يريد إن شأننا طعن من لا تنال سيوفنا.

(5) اللدن: اللين. والجمع: لدن.
(يقول): نطاعنهم برماح سمر لينة، من رماح الرجل الخطى، يريد سمهراً. أو نضاربهم بسيوف بيض يقطعن ما ضرب بها. توصف الرماح بالسمرة، لأن سمرتها دالة على نضجها في منابتها.

(6) الأبطال: جمع بطل، وهو الشجاع الذي يبطل دماء أقرانه. والوسوق: جمع وسق، وهو حمل بعير. والأماعز: جمع الأمعز، وهو المكان الذي تكثر حجارته.
(يقول): كأن جماجم الشجعان منهم أحمال إبل تسقط في الأماكن الكثيرة الحجارة. شبه رؤوسهم في عظمها بأحمال الإبل. والإرتماء: لازم ومعتد، وهو في البيت لازم. وسوق خبر كأنّ في أول البيت.

نَشُقُّ بِهَا رُءُوسَ الْقَوْمِ شَقّاً ... ونَخْتَلِبُ الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا[1]

وَإِنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَبْدُو ... عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا[2]

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... نُطَاعِنُ دونَهُ حَتَّى يَبِينَا[3]

وَنَحْنُ إِذا عِمَادُ الحَيِّ خَرَّتْ ... عَنِ الْأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا[4]

نَجُذُّ رُءُوسَهُمْ فِي غَيْرِ بِرٍّ ... فَمَا يَدْرُونَ مَاذا يَتَّقُونَا[5]

كَأَنَّ سُيُوفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ ... مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لاعِبِينَا[6]

---

(1) الاختلاب: قطع الشيء بالمخلب، وهو المنجل، الذي لا أسنان له. والاختلاء: قطع الخلا، وهو رطب الحشيش.

(يقول): نشق بها رؤوس الأعداء شقاً، ونقطع بها رقابهم، فيقطعن.

(2) (يقول): وإن الضغن بعد الضغن تفشو آثاره، ويخرج الداء المدفون من الأفئدة، أي يبعث على الانتقام. الضعن: الحقد والكره الدقيق: فعيل بمعنى اسم المفعول.

(3) (يقول): ورثنا شرف آبائنا، قد علمت ذلك معد نطاعن الأعداء دون شرفنا، حتى يظهر الشرف لنا. والطعان يكون بالرماح.

(4) الحفض: متاع البيت. والجمع: أحفاض. والحفض: البعير الذي يحمل خرثى البيت. والجمع أحفاض. من روى في البيت(على الأحفاض): أراد بها الأمتعة، ومن روى (عن الأحفاض): أراد بها الإبل.

(يقول): ونحن إذا قوضت الخيام، فخرت على أمتعتها، نمنع ونحمي من يقرب منا من جيراننا. أو ونحن إذا سقطت الخيام عن الإبل، للإسراع في الهرب، نمنع ونحمي جيراننا. إذا هرب غيرنا، حمينا غيرنا.

(5) الجذ: القطع.

(يقول): نقطع رءويهم في غير بر، أي في عقوق، ولا يدرون ماذا يحذرون منا من مقتل، وسبي الحرم، واستباحة الأموال.

(6) المخراق: معروف. والمخراق أيضاً: سيف من خشب. وفي البيت تشبيه مفرد.

(يقول): كنا لا نحفل بالضرب بالسيوف، كما لا يحفل اللاعبون بالضرب بالمخاريق. أو كنا نضرب بها في سرعة، كما يضرب بالمخاريق في سرعة.

كـــأَنَّ ثِيَابَنَـــا مِنَّـــا وَمِـــنْهُمْ ... خُـــضِبْنَ بِـــأُرْجَوانٍ أَوْ طُلِينَـــا[1]

إِذا مَـــاعَيَّ بِالْإِسْـــنافِ حَـــيٌّ ... مِـــنَ الْهَـــوْلِ الْمُـــشْبَّهِ أَنْ يَكونـــا[2]

نَـــصَبْنا مِثْـــلَ رَهْـــوَةَ ذاتَ حَـــدٍّ ... مُحَافَظَـــةً وَكُنَّـــا الـــسَّابِقِينا[3]

بِـــشُبَّانٍ يَـــرَوْنَ الْقَتْـــلَ مَجْـــداً ... وَشِـــيبٍ فِي الحُـــرُوبِ مُجَرَّبِينـــا[4]

حُـــدَيَّا النَّـــاسِ كُلِّهِـــمِ جَمَيعـــاً ... مُقارَعَـــةً بَنِـــيهِمْ عَـــنْ بَنِينـــا[5]

فأَمَّـــا يَـــوْمَ خَـــشْيَتِنا عَلَـــيْهِمْ ... فَتُـــصْبِحُ خَيْلُنـــا عُـــصَبًا ثُبِينـــا[6]

وأَمَّـــا يَـــوْمَ لا نَخْـــشَى عَلَـــيْهِمْ ... فَـــنُمْعِنُ غـــارَةً مُتَلَبِّبِينـــا[7]

---

(1) (يقول): كأن ثيابنا وثياب أقراننا خضبت بأرجوان، أو طيلت. .

(2) الإسناف: الإقدام. العيّ: التعب. الحي: القبيلة. الهول: الخوف.

(يقول): إذا عجز عن التقدم قوم، مخافة هول منتظر متوقع، يشبه أن يكون ويمكن.

(3) (يقول): نصبنا خيلاً مثل هذا الجبل، أو كتيبة ذات شوكة، محافظة على أحسابنا، وسبقنا خصومنا، أي غلبناهم. الرهوة: مجموعة الخيل بضرسانها.

وتحرير المعنى: إذا فزع غيرنا من التقدم، أقدمنا مع كتيبة ذات شوكة، وغلبنا؛ وإنما هذا محافظة على أحسابنا.

(4) (يقوم): نسبق ونغلب بشبان يَعدّون القتل في الحروب مجداً. وشيب قد مرنوا على الحروب.

(5) حدباً: اسم جاء على صيغة التصغير، مثل ثريا وحمياً، وهي بمعنى التحدي.

(يقول): نتحدى الناس كلهم بمثل مجدنا وشرفنا، ونقارع أبناءهم، ذابين عن أبنائنا. أي نضاربهم بالسيوف حماية للحريم، وذبا على الحوزة.

(6) العصب: جمع عصبة، وهي ما بين العشرة والأربعين. والثبة: الجماعة. والجمع: النبات والثبون، في الرفع. والثبين، في النصب والجر.

(يقول): فأما يوم نخشى على أبنائنا وحرمنا من الأعداء، فتصبح خيانة جماعات، أي تتفرق في كل وجه، لذب الأعداء عن الحرم.

(7) الإمعان: الإسراع والمبالغة في الشيء. والتلبب: لبس السلاح.

(يقول): وأما يوم لا نخشى على حرمنا من أعدائنا، فنمعن في الإغارة على الأعداء، لابسين أسلحتنا.

بِـرَأْسٍ مِـنْ بَنِـي جُـشَمَ بْـنِ بَكْـرٍ نَـدُقُّ بِـهِ السُّهُولةَ وَ الحُزُونـا [1]

أَلا لا يَعْلَـمِ الْأَقْـوامُ أَنَّـا تَضَعْـضَعْنَا وَأَنَّـا قَـدْ وَنَينَـا [2]

أَلا لا يَجْهَلَـنْ أَحَـدٌ عَلَيْنـا فَنَجْهَـلَ فَـوْقَ جَهْـلِ الْجَاهِلِينـا [3]

بِـأَيِّ مَـشِيئَةٍ عَمْـرَو بْـنَ هِنْـدٍ نَكُـونُ لِقَـيْلِكُمْ فِيهَـا قَطِينـا [4]

بِـأَيِّ مَـشِيئَةٍ عَمْـرَو بْـنَ هِنْـدٍ تُطِيـعُ بِنـا الْوُشـاةَ وتَزْدَرِينـا [5]

---

(1) الرأس: الرئيس والسيد.

(يقول): نغير عليهم مع سيد من هؤلاء القوم، ندق به السهل والحزن، أي نهزم الضعاف والأشداء.

(2) التضعضع: التكسر والتذلل. ضعضعته فتضعضع: أي كسرته فانكسر. والونى: الفتور.

(يقول): لا يعلم الأقوام أننا تذللنا وانكسرنا وفترنا في الحرب. أي لسنا بهذه الصفة، فتعلمنا الأقوام بها.

(3) أي لا يسفهن أحد علينا، فنسفه عليهم فوق سفههم، أي نجازيهم بسفههم جزاء يربى عليه، فسمي جزاء الجهل جهلاً، لازدواج الكلام، وحسن تجالس اللفظ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ ﴾ ، وقال جل ذكره: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ ، سمي جزاء الاستهزاء، والسيئة، والمكر، والخداع استهزاء وسيئة ومكراً وخداعاً، لما ذكرنا.

(4) القطين: الخدم. والقيل: الملك دون الملك الأعظم.

(يقول): كيف تشاء يا عمرو بن هند أن نكون خدماً لمن وليتموهم أمرنا من الملوك الذين وليتموهم؟ أي أي شيء دعاك إلى هذه المشيئة المحالة. نريد أنه لم يظهر منهم ضعف يطمع الملك في إذلالهم، باستخدام قيله إياهم.

(5) ازدراه وازدرى به: قصر به واحتقره.

(يقول): كيف تشاء أن تطيع الوشاة بنا إليك، وتحتقرنا وتقصر بنا ؟ أي أيُّ شيء دعاك إلى هذه المشيئة، أي لم يظهر منا ضعف يطمع الملك فينا، حتى يصغي إلى من يشى بنا إليه، ويغريه بنا فيحتقرنا.

تَهَـــدَّدْنا وَأَوْعِـــدْنا رُوَيْـــداً ... مَتَـــى كُنَّـــا لأُمِّـــكَ مُقْتَوِينـــا[1]

فـــإِنَّ قَناتَنـــا يَـــا عَمْـــرُو أَعْيَـــتْ ... عَلَـــى الْأَعْـــداءِ قَبْلَـــكَ أَنْ تَلِينـــا[2]

إِذا عَـــضَّ الثِّقـــافُ بِهـــا اشْـــمَأَزَّتْ ... وَوَلَّتْـــــهُ عَـــــشَوْزَنَةً زَبُونـــــا[3]

عَـــــشَوْزَنَةً إِذا انْقَلَبَـــــتْ أَرَنَّـــــتْ ... تَـــشُجُّ قَفَـــا الْمُثَقَّـــفِ وَالْجَبِينَـــا[4]

فَهَـلْ حُـدِّثْتَ فِي جُـشَمِ بْـنِ بَكْـرٍ ... بِـــنَقْصٍ فِي خُطُـــوبِ الْأَوَّلِينـــا[5]

وَرِثْنـــا مَجْـــدَ عَلْقَمَـــةَ بْـــنِ سَـــيْفٍ ... أَبَـــاحَ لَنَـــا حُـــصُونَ الْمَجْـــدِ دَينَـــا[6]

---

(1) القتو: خدمة الملوك. والفعل: فتا يقتو. والمقتي: مصدر كالقتو، تنسب إليه، فتقول: مقتوى. ثم يجمع مع طرح ياء النسبة، فيقال: مقتوون، في الرفع، ومقتوين في الجر والنصب، كما يجمع الأعجمي بطرح ياء النسبة، فيقال: أعجمون في الرفع، وأعجمين في النصب والجر.
(يقول): ترفق في تهددنا وإبعادنا، ولا تمعن فيهما، فمتى كنا خدماً لأمك ؟ أي لم نكن خدماً لها، حتى نعبأ بتهديدك ووعيدك إيانا. ومن روى: (تهددنا وتوعدنا) كان إخباراً. ثم قال: رويداً: أي دع الوعيد والتهديد وأمهله.

(2) العرب تستعير للعز اسم القناة.
(يقول): فإن قناتنا أبت أن تلين لأعدائنا قبلك. يريد أن عزهم أبي أن يزول بمحاربة أعدائهم ومخاصمتهم ومكايدتهم. يريد أن عزهم منيع لا يرام.

(3) الثقاف: الحديدة التي يقوم بها الرمح. وقد ثقفته: قومته. العشوزنة: الصلبة الشديدة. والزبون: الدفوع، وأصله من قولهم: زبنت الناقة حالبها: إذا صربته بثفنات رجليها، أي بركبتيها. ومنه الزبانية، لزبنهم أهل النار، أي لدفعهم.
(يقول): إذا أخذها الثقاف لتقويمها، نفرت من التقويم، وولت الثقاف قناة صلبة شديدة دفوعاً. جعل القناة التي لا يتهيأ تقويمها مثلاً لعزتهم التي لا تضعضع، وجعل قهرها من تعرض لهدمها، كنفار القناة من التقويم والاعتدال.

(4) أرنت: صوتت. والإرنان هنا لازم، وقد يكون متعدياً، ثم بالغ في وصف القناة بأنها تصوت إذا أريد تثقيفها، ولم تطاوع الغامز، بل تشج قفاه وجبينه، كذلك عزتهم لا تضعضع لمن رامها، بل تهلكه وتقهره. .

(5) (يقول): هل أخبرت بنقصٍ كان من هؤلاء في أمور القرون الماضية، أو بنقص عهد سلف.

(6) الدين: القهر. ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير مقهورين.
=

وَرِثْـــتُ مُهَلْهِـــلاً وَالخَيْـــرَ مِنْـــهُ زُهَيْـــرا نِعْـــمَ ذُخْـــرُ الـــذَّاخِرِينا[1]

وَعَتَّابـــــاً وَكُلْثُومـــــاً جمِيعـــــاً بِهِـــمْ نِلْنـــا تُـــراثَ الْأَكْرَمِينـــا[2]

وَذا الْبُـــرَةِ الَّـــذي حُـــدِّثتَ عَنْـــهُ بـــهِ نُحْمَـــى وَنَحْمِـــي المُحْجَرينـــا[3]

وَمِنَّـــا قَبْلَـــهُ الـــسَّاعِي كُلَيْـــبٌ فَـــأَيُّ المَجْـــدِ إِلا وَقَـــدْ وَلِينـــا[4]

مَتَـــى نَعْقِـــدْ قَرِينَتَنـــا بِحَبْـــلٍ تَجُـــدَّ الحَبْـــلَ أَوْ تَقِـــصِ القَرِينـــا[5]

وَنُوجَـــدْ نَحْـــنُ أَمْـــنَعَهُمْ ذِمَـــاراً وَأَوْفـــاهُمْ إِذا عَقَـــدُوا يَمِينـــا[6]

=

(يقول): ورثنا مجد هذا الرجل الشريف من أسلافنا، وقد جعل لنا حصون المجد مباحة قهراً وعنوة. أي غلب أقرانه على المجد، ثم أورثنا مجده ذلك.

(1) (يقول): ورثت مجد مهلهل، ومجد الرجل الذي هو خير منه، وهو زهير، فنعم ذخر الذاخرين هو، أي مجده وشرفه، للافتخار به.

(2) (يقول): ورثنا مجد عتاب وكلثوم وبهم بلغنا ميراث الأكارم، أي حزناً مآثرهم ومفاخرهم، فشرفنا بها وكرمنا.

(3) ذو البرة: من بني تغلب، سمي به لشعر على أنفه يستدير كالحلقة.

(يقول): ورثت مجد ذي البرة الذي اشتهر وعرف، وحدثت عنه أيها المخاطب، وبمجده يحمينا سيدنا، وبه نحمي الفقراء الملجئين إلى الاستجارة بغيرهم.

(4) (يقول): ومنا قبل ذي البرة الساعي للمعالي كليب. يعني كليب وائل، ثم قال: وأي المجد إلا قد ولينا، أي قربنا منه، فموهناه.

(5) (يقول): متى قرنا ناقتنا بأخرى، قطعت الحبل، أو كسرت عنق القرين. والمعنى: متى قرنا بقوم في قتال أو جدال، غلبناهم وقهرناهم. والجذ القطع. والفعل: جذ يجذ. والوقص دق العنق. والفعل: وقص يقص.

(6) (يقول): تجدنا أيها المخاطب أمنعهم ذمة وجواراً وحلفاً، وأوفاهم باليمين عند عقدها. والذمار: العهد، والحلف، والذمة. سمي به لأنه يتذمر له، أي يتغضب لمراعاته.

وَنُحْـــنُ غَـــداةَ أُوقِـــدَ فِي خَـــزَازَى رَفَـــدْنا فَـــوقَ رِفْـــدِ الرَّافِـــدِينا[1]

وَنَحْـــنُ الحَابِـــسُونَ بِـــذِي أُراطَـــى تَـــسَفُّ الجِلَّـــةُ الخُـــورُ الـــدَّرِينا[2]

وَكنّـــا الْأَيْمَـــنِينَ إِذا الْتَقَيْنَـــا وَكَـــانَ الْأَيْـــسَرُونَ بَنُـــو أَبِينـــا[3]

فَـــصَالُوا صَـــوْلَةً فِـــيمَنْ يَلِـــيهِمْ وَصُـــلْنا صَـــوْلَةً فِـــيمَنْ يَلِينـــا[4]

فَـــآبُوا بِالنِّهَـــابِ وَبِالـــسَّبَايَا وَأُبْنَـــا بِـــالْمُلُوكِ مُـــصَفَّدِينا[5]

---

(1) الرفد: الإعانة. والرفد: الاسم.

(يقول): ونحن غداة أوقدت نار الحرب في خزازى، أعنا نزاراً فوق إعانة المعينين. يفتخر بإعانة قومه بني نزار في محاربتهم اليمن.

(2) تسف: أي تأكل يابساً. والمصدر: السفوف. والجلة: الكبار من الإبل. والخور: الكثيرة الألبان. وقيل الخور: الغزار من الإبل. والناقة: خوراء. والدرين: ما اسود من النبت وقدم.

(يقول): ونحن حبسنا أموالنا بهذا الموضع، حتى سفت النوق الغزار قديم النبت وأسوده، لإعانة قومنا، ومساعدتهم على قتال أعدائهم.

زاد بعض الروايات البيتين الآتيين:

وَنَحْـــنُ الحَـــاكِمُونَ إِذا أُطِعْنَـــا وَنَحْـــنُ العَزِمُـــونَ إِذا عُصِـــينا

وَنَحْـــنُ التَّـــارِكونَ لِمَـــا سَـــخِطْنَا وَنَحْـــنُ الآخِـــذُونَ لِمَـــا رَضِـــينا

(3) (يقول): كنا حماة الميمنة إذا لقينا الأعداء، وكان إخواننا حماة الميسرة. يصف غناءهم في حرب نزار واليمن، عند مقتل كليب وائل، لبيد بن عنق الغساني، عامل ملك غسان على تغلب، حين لَطَمَ أخت كليب، وكانت تحته.

(4) (يقول): فحمل بنو بكر على من يليهم من الأعداء، وحملَنا على من يلينا.

(5) النهاب: الغنائم. والواحدة: نهب. والأوب: الرجوع. والتصفيد: التقييد، يقال صفدته وصفدته: أي قيدته وأوثقته.

(يقول): فرجع بنو بكر مع الغنائم والسبايا، ورجعنا مع الملوك مقيدين. أي اغتنموا الأموال، وأسرنا الملوك.

إِلَـيْكُمْ يَـا بَنِـي بَكْـرٍ إِلَـيْكُمْ ... أَلَمَّـا تَعْرِفُـوا مِنَّـا الْيَقِينـا[1]

أَلَمَّـا تَعْلَمُـوا مِنَّـا وَمِـنْكُمْ ... كَتَائِـبَ يَطَّعِـنَّ وَيَرْتَمِينـا[2]

عَلَيْنـا الْبَـيْضُ وَالْيَلَـبِ الْيَمَـانِي ... وَأَسْـيَافٌ يَقُمْـنَ وَيَنْحَنِينـا[3]

عَلَيْنـا كُـلُّ سَـابِغَةٍ دِلاصٍ ... تَـرَى فَـوْقَ النِّطَـاقِ لَهَـا غُـضُونا[4]

إِذا وُضِـعَتْ عَـنِ الْأَبْطَـالِ يَوْمـاً ... رَأَيْـتَ لَهَـا جُلُـودَ القَـوْمِ جُونـا[5]

كَـأَنَّ غُـضُونَهَنَّ مُتُـونُ غُـدْرٍ ... تُـصَفِّقُها الرِّيـاحُ إِذا جَرَينـا[6]

وَتحْمِلُنـا غَـدَاةَ الـرَّوْعِ جُـرْدٌ ... عُـرِفْنَ لَنـا نَقائِـذَ وَافتُلِينـا[7]

---

(1) (يقول): تنحوا وتباعدوا عن مساماتنا ومباراتنا يا بني بكر، ألم تعلموا من نجدتنا وبأسنا اليقين ؟ أي قد علمتم ذلك لنا، فلا تتعرضوا لنا. يقال: إليك إليك، أي تنح.

(2) (يقول): ألم تعلموا كتائب منا ومنكم يطعن بعضهن بعضاً، ويرى بعضهن بعضاً، وما في قوله (ألما): صلة زائدة. والأطعان والارتماء: مثل التطاعن والترامي.

(3) اليلب: نسيجة من سيور، تلبس تحت البيض.

(يقول): وكان علينا البيض واليلب اليماني، وأسياف يقومن وينحنين، لطول الضراب بها.

(4) السابغة: الدرع الواسعة التامة. والدلاص: البراقة. والغضون جمع عضن، وهو التشنج في الشيء.

(يقول): وكانت علينا كل درع واسعة براقة، ترى أيها المخاطب فوق المنطقة لها غضوناً، لسعتها وسبوغها.

(5) الجون: الأسود. والجون: الأبيض. والجمع: الجون.

(يقول): إذا خلعها الأبطال يوماً رأيت جلودهم سوداً، للبسهم إياها. قوله (لها): أي للبسها.

(6) الغدر: مخفف غدر، وهو جمع غدير. تصفقه: تضربه. شبه غضون الدرع بمتون الغدران إذا ضربتها الرياح في جريها؛ والطرائق التي ترى في الدروع، بالتي تراها في الماء إذا ضربته الريح

(7) الروع: الفزع. ويريد به الحرب هنا. والجرد: التي رق شعر جسدها وقصر. والواحد: أجرد: جرداء. والنقائذ: المخلصات من أيدي الأعداء. واحدتها: نقيذة. وهي فعيلة بمعنى مفعلة، يقال: أنقذتها: أي خلصتها، فهي منقذة ونقيذة. والفلو والافتلاء: القطام.

(يقول): وتحملنا في الحروب خيل رقاق الشعور قصارها، عرفن لنا، وفطمت عندنا، وخلصناها من أيدي أعدائنا، بعد استيلائهم عليها.

وَرَدْنَ دَوَارِعـــاً وَخَـــرَجْنَ شُـــعْثاً ... كأمْثـالِ الرَّصـائعِ قَـدْ بَلِينـا[1]

وَرِثنـــاهُنَّ عَـــنْ آبـــاءِ صِـــدْقٍ ... وَنُورِثُهَـــا إذا مُتْنـــا بَنِينـــا[2]

عَلَـــى آثارِنـــا بـــيضٌ حِـــسَانٌ ... نُحَـــاذِرُ أَنْ تُقَـــسِمَ أَوْ تَهُونـــا[3]

أَخَـــذْنَ عَلَـــى بُعُـــولَتِهِنَّ عَهْـــداً ... إذا لاقَـــوْا كَتَائـــبَ مُعْلِمِينـــا[4]

لَيَـــسْتَلِبُنَّ أَفْراســـاً وَبَيْـــضاً ... وَأَسْـــرَى فِي الْحَدِيـــدِ مُقَرَّنِينـــا[5]

تَرانـــا بَـــارِزِينَ وَكُـــلُّ حَـــيٍّ ... قَـــد اتَّخَـــذُوا مَخافَتَنـــا قَرِينْـــا[6]

إذا مَـــا رُحْـــنَ يَمْـــشِينَ الْهُـــوَيْنَى ... كَمَـــا اضْـطَرَبَتْ مُتُـونُ الـشَّارِبِينا[7]

---

(1) رجل دارع: عليه درع. ودروع الخيل: تجافيفها. والرصائع: جمع الرصيعة، وهي عقدة العنان على قذال الفرس.

(يقول): وردت خيلنا وعليها تجافيفها، وخرجن منها شعثاً قد يلين بلى عقد الأعنة، لما نالها من الكلال والمشاق فيها.

(2) (يقول): ورثنا خيلنا من آباء كرام، شأنهم الصدق في الفعال والمقال. ونورثها أبناءنا إذا متنا. يريد أنها تناتجت وتناسلت عندهم قديماً.

(3) (يقول): على آثارنا في الحروب نساء بيض حسان، نحاذر عليها أن تسبيها الأعداء، فتقسمها وتهينها. وكانت العرب تشهد نساءها الحروب، وتقيمها خلف الرجال، ليقاتل الرجال ذبا عن حرمها، فلا تفشل، مخافة العار بسبي الحرم.

(4) (يقول): قد عاهدن أزواجهن إذا قاتلوا كتائب من الأعداء قد أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها في الحروب، أن يثبتوا في حومة القتال، ولا يفروا. والبعولة: جمع بعل. يقال للرجل: هو بعل المرأة. وللمرأة هي بعلة وبعلته، كما يقال هو زوجها وهي زوجة وزوجته.

(5) أي ليستلب خيلنا أفراس الأعداء وبيضهم، وأسرى منهم قد قرنوا في الحديد.

(6) (يقول): ترانا خارجين إلى الأرض البراز، وهي الصحراء التي لا جبل بها، لثقتنا بنجدتنا وشوكتنا. وكل قبيلة تستجير وتعتصم بغيرها، مخافة سطوتنا بها.

(7) الهوينى: تصغير الهونى، وهي تأنيث الأهوان؛ مثل الأكبر والكبرى..

(يقول): إذا مشين يمشين مشياً رفيقاً، لثقل أردافهن، وكثرة لحومهن. ثم شبههن في تبخترهن بالسكارى في مشيهم.

يَقُـــتْنَ جِيادَنـــا وَيَقلْـــنَ لَـــسْتُمْ بُعُولَتَنـــا إِذا لَـــمْ تَمْنَعُونـــاً[1]

ظَعَـأَئِنْ مِـنْ بَـني جُـشَمَ بْـنِ بَكـرٍ خَلَطْـنَ بِمِبْـسَمٍ حَـسَباً وَدِينـا[2]

وَمَـا مَنَـعَ الظعَـائِنَ مِثْـلُ ضَـرْبٍ تَـرَى مِنْـهُ الـسَّواعِدَ كَالْقُلِينـا[3]

كَانَّـــا والـــسُّيُوفُ مُـــسَلَّلاتُ وَلَـدْنَا النَّـاسَ طُـرّاً أَجْمَعِينـا[4]

يُدَهْـدُونَ الـرُّءُوسَ كَمَـا تُدَهْـدِي حَـزَاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهـا الْكُورينـا[5]

وَقَـدْ عَلِـمَ الْقَبائِـلُ مِـنْ مَعَـدٍّ إِذا قُبَـبٌ بِأَبْطَحِهـا بُنِينـا[6]

---

(1) القوت: الإطعام بقدر الحاجة. والفعل: قات يقوت. والاسم: القوت والقيت. والجمع: الأقوات.
(يقول): يعلفن خيلنا الجياد، ويقلن: لستم أزواجنا إذا لم تمنعونا من سبي الأعداء وإيانا.

(2) الميسم: الحسن. وهو من الوسام والوسامة، وهما الحسن والجمال. والفعل: وسم يوسم. والنعت وسيم: والحسب: ما يحسب من مكارم الإنسان ومكارم أسلافه. فهو فعل في معنى مفعول؛ مثل النقض، والخبط، والقبض، واللقط في معنى المنفوس، والمخبوط، والمقبوض، والملقوط. فالحسب إذن في معنى المحسوب من مكارم آبائه.
(يقول): هن نساء من هذه القبيلة، جمعن إلى الجمال الكرم والدين.

(3) (يقول): ما منع النساء من سبي الأعداء إياهن شيء، مثل ضرب تندر وتطير منه سواعد المضروبين، كما تطير القلة إذا ضربت بالمقلاة..

(4) (يقول): كأنا حال استلال السيوف من أغمادها، أي حال الحرب، ولدنا جميع الناس، أي نحميهم حماية الوالد ولده.

(5) الحزور: الغلام الغليظ الشديد، والجمع: الحزاورة.
(يقول): يدحرجون رؤوس أقرانهم، كما يدحرج الغلمان الغلاظ الشداد الكرات، في مكان مطمئن من الأرض.
يروى بعد هذا البيت قوله:

إِذا لَـــمْ نَحْمِهِـــنَّ فَـــلاَ بَقِينـــا لِـــشَيْءٍ بَعْـــدَهُنَّ وَلا حَيِينـــا

(6) (يقول): وقد علمت قبائل معد إذا بنيت قبابها بمكان أبطح. والقبب والقباب: جمعا قبة.

بِأَنَّـــا المُطْعِمُـــونَ إِذا قَـــدَرْنَا وَأَنَّـــا المُهْلِكُـــونَ إِذا ابْتُلِينـــا[1]

وَأَنَّـــا المَـــانِعُونَ لِمَـــا أَرَدْنَـــا وَأَنَّـــا النَّـــازِلُونَ بِحَيْـــثُ شِـــينا[2]

وَأَنَّـــا التَّـــارِكُونَ إِذا سَـــخِطْنا وَأَنَّـــا الآخِـــذُونَ إِذا رَضِـــينا[3]

وأَنَّـــا الْعاصِـــمُونَ إِذا أُطِعْنَـــا وَأَنَّنـــا الْعـــارِمُونَ إِذا عُـــصِينا[4]

وَنَـــشْرَبُ إِنْ وَرَدْنـــا المَـــاءَ صَـــفْوا وَيَـــشْرَبُ غَيْرُنـــا كَـــدِراً وَطِينـــا [5]

ألاَ أَبْلِـــغْ بَنِـــي الطَّمَّـــاحِ عَنَّـــا وَدُعْمِيًّـــا فَكَيْـــفَ وَجَـــدْتُمُونا؟[6]

إِذا مَـا المَلْـك سـامَ النَّـاسَ خَـسْفاً أَبَيْنَـــا أَنْ نُقِـــرَّ الـــذلَّ فِينـــا[7]

مَلأْنـــا البَـــرَّ حَتَّـــى ضـــاقَ عَنَّـــا وَمَـــاءَ الْبَحْـــرِ نَمْلَـــؤُهُ سَـــفِينا[8]

إِذا بَلَـــغَ الْفِطـــامُ لَنـــا صَـــبِيٌّ تَخِـــرُّ لَـــهُ الْجَبـــابِرُ ســـاجِدِينا[9]

---

(1) (يقول): قد علمت هذه القبائل: أنا نطعم الضيفان إذا قدرنا عليه، ونهلك أعداءنا إذا اختبروا قتالنا.

(2) (يقول): وأنا نمنع الناس ما أردنا منعه إياهم، وننزل حيث شئنا من بلاد العرب.

(3) (يقول): وأنا نترك ما نسخط عليه، ونأخذ إذا رضينا، أي لا تقبل عطايا من سخطنا عليه، ونقبل هدايا من رضينا عليه..

(4) (يقول): وأن نعصم ونمنع جيراننا إذا أطاعونا، ونعرم عليهم بالعدوان إذا عصونا.

(5) (ونأخذ من كل شيء أفضله، وندع لغيرنا أرذله. يريد أنهم السادة والقادة، وغيرهم أتباع لهم.

(6) (يقول): سل هؤلاء كيف وجدونا: شجعاناً أم جبناء ؟.

(7) الخسف والخسف: الذل. والسوم: أن تجشم إنساناً مشقة وشراً، يقال: سامه خسفاً، أي حمله وكلفه ما فيه ذلة.

(يقول): إذا أكره الملك الناس على ما فيه ذلهم، أبينا الانقياد له.

(8) (يقول): عممنا الدنيا براً ومجراً، فضاق البر عن بيوتنا، والبحر عن سفننا.

يروى بعد هذا البيت قوله:

لنـــا الـــدنيا ومـــن أمـــسى عليهـــا ونـــبطش حـــين نـــبطش قادرينـــا

بغـــاة ظـــالمين ومـــا ظلمنـــا ولكنـــا ســـنبدأ ظالمينـــا

(9) (يقول): إذا بلغ صبياننا وقت الفطام سجدت لهم الجبابرة من غيرنا.

خصائص الشعر الجاهلي

لقد صدق من قال : "الشعر ديوان العرب"

من هذا القول يمكن أن نبين خصائص الشعر الجاهلي، خاصة معلقتي طرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم، وكلتاهما من الشعر الجاهلي:

البيئة؛ البادية، بيئة الشعر الجاهلي، لذلك كان الشعر مرآة للحياة البدوية. وتتوقع أن تكون خصائص الشعر الجاهلي تدور حول البادية. ومن تلك الخصائص:

أولاً : الخصائص المعنوية

وتتمثل في:

1. الصدق: فالشاعر يعبر عما في نفسه، ولا يتكلف في إيراده.
2. الذاتية أو الوجدانية: فالشعر الجاهلي يصف نفس صاحبه، في الدرجة الأولى.
3. البساطة: إذ الحياة البدوية حياة فطرية غير متكلّفة، غير معقدة، ولذلك جرى الشاعر الجاهلي على طبعه وسجيته.
4. القول الجامع: البدوي البسيط غير المعقد يميل إلى استجماع القول حتى في البيت الواحد من الشعر، يجمع معاني تامّة.
5. الإطالة والاستطراد. لذلك وُصِف بعض الشعراء إنه طويل النفس، مما يجعله أن يطيل القصائد. وقد يخرج الشاعر عن الموضوع الأساسي إلى موضوعات أخرى، فيسمّى هذا بالاستطراد.
6. الخيال: خيال متأثر بالواقع، بالصحراء. فهو خيال واسع سعة الصحراء، فطري بسيط كبساطة بيئة الشاعر.

ثانياً: الخصائص اللفظية

1. غرابة الألفاظ وجزالتها.

2. متانة التراكيب وبلاغة الأداء.

3. العناية والتنقيح كما هو عند زهير بن أبي سلمى.

4. الوقوف على الإطلال وذكرياته، ثم ذكر الغرض الرئيسي من القصيدة والتنوع فيه.

ملاحظات حول المعلقات بصفة عامة، ومعلقة عمرو بن كلثوم بصفة خاصة:

الذي يتتبع في دراسته للمعلقات يجد النموذج السائد عليها أنها:

1. تبدأ بالوقوف على الإطلال كما في معلقة إمريء القيس وطرفة ولبيد بن ربيعة.

2. ثم وصف الرحلة، رحلة الحبيبة المرتحلة، من مرابع أهلها التي يعرفها الشاعر، وربما كان يزورها فيها، إلى مرابع أخرى جديدة.

3. ثم الموضوع الأساسي الذي أرادهُ الشاعر كالغزل والفخر، والحماسة، والمدح أو الهجاء وغير ذلك.

4. وربما يتخلل ذلك شيء من الكمه أو الفخر بالذات أو القبيلة.

لكن هذا النموذج الذي اتخذه شعراء المعلقات نموذجهم المعتاد خرج عليه عمرو بن كلثوم، بحيث بدأ معلقته بوصف الخمرة، ثم تابع حديثه عن حبيبته الظاعنة، المرتحلة، ثم أخذ بالحديث عن المعركة، ثم الغزل وبعد هذه المسافة الطويلة يأخذ بالحديث عن موضوع جديد، وهو علاقته بالملك عمرو بن هند، ووصف المعركة بكل وضوح ويشير كيف أن أم الملك حاولت أن تستخدم أم الشاعر، ورفض الشاعر وقومه هذه الذلة والمهانة.

ولم يستعمل الشاعر في قصيدته هذه إلا ضمير الجمع للدلالة أنه يتكلم عن غزة قومه بما هو فيهم.

فكرة تستحق الوقوف عندها :

إن الناظر إلى الشعر العربي القديم يلاحظ أنّ القصائد فيه مبدوءة بمقدمة تقليدية غزلية، ثم ينتقل إلى وصف الناقة، ثم وصف الطريق، والصيد، والرحلة، والفرس، والمطر.... ثم ينتقل إلى موضوعه في المديح أو الفخر أو الهجاء، أو الشكوى. وهذا النمط يظهر بوضوح في شعر الجاهليين والإسلاميين والأمويين وبعض العباسيين.

والحقيقة أن الدراسة على هذا الأساس ستنتهي بنا إلى الشعور أن الشعر القديم مفكك الأوصال، أو عدم وضوح الوحدة الفنية. ولهذا كان لا بد من دراسة القصيدة العربية القديمة على منهاج آخر، كأن يكون نفسياً أو بنيوياً، أو رمزياً، أو غير ذلك.

الوحدة الثالثة

الأدب العربي في العصر الإسلامي والأموي

الوحدة الثالثة
الأدب العربي في العصر الإسلامي والأموي

مدخل إلى الأدب الإسلامي

انبثق الأدب الجاهلي ــ شعره ونثره ــ من عقيدة أهله، وهي عقيدة الشرك والوثنية وعبادة الأوثان، واستمرت حياة العرب في الجاهلية كذلك، حياتهم الدينية، وحياتهم الاجتماعية، وحياتهم العقلية والفكرية،فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا قومه إلى الإسلام، دين التوحيد، قاومه قومه، بل العرب أجمعين، وبدرجات متفاوتة.

مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو فيؤمن معه الواحد والاثنان، ثم سمح لأتباعه بالهجرة، هجرة الطائف، ولكنها لم تمكث طويلاً، ثم هجرة الحبشة، ولم تمكث طويلاً، ثم هجرة أصحابه إلى المدينة المنورة، والتي كان اسمها ــ قبل ــ يثرب.

في المدينة وضع، صلى الله عليه وسلم أسس الدولة، ووحّد القبائل العربية، وأنشأ في نفوس العرب فكرة الوحدة العربية، بل تستطيع القول أنه أسس الدولة، وأنشأ مجتمعاً إسلامياً بقيم جديدة قائمة على عقيدة جديدة هي عقيدة التوحيد والإيمان بالله، تغيرت على ذلك كل القيم الجاهلية من دينية واجتماعية وعقلية وفكرية.

ثم جاء الخلفاء الراشدون، حيث كان الحكم شوري، ومتابعة لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان في عهدهم ــ كذلك ــ الفتح الإسلامي، فتحت سوريا ــ بلاد الشام ــ ومصر، والعراق، وبلاد فارس، وشمال إفريقيا.

وكان أول ثمرات الإسلام القضاء على العصبية القبلية، التي كانت السبب في كثير من الغزوات والحروب بين القبائل المتنازعة، وقد قضى الإسلام على الفوارق الطبقية التي كانت قائمة في الجاهلية، وألغى الرق، وساوى بين الناس، فهم جميعاً أخوة، لا فضل لأحدهم على الآخر إلاّ بالتقوى، وفرض الصلاة والزكاة، واعتنى بالأسرة، التي هي المؤسسة الاجتماعية الرئيسة، فالأب هو القائم على شؤون أسرته، تربية وتنشئة لما فيه خيرهم وصالحهم. ونظم شؤون الزواج والطلاق، وحرص على تنمية مكارم الأخلاق، وربط الإسلام الجماعة الإسلامية بعلاقات من الرحمة والتقوى والدين، ونظم علاقات المسلمين مع غيرهم من الأمم الأخرى.

أثر الإسلام في الأدب:

كان للإسلام أثر كبير في الأدب، شعره ونثره.بل تعرض الأدب لهزات عنيفة منها مثلاً: أن القرآن فرّق بين الشاعر المؤمن والشاعر المشرك الكافر، وأنه لا يتبع الشاعر إلاّ الغاوون ثم استثنى من هؤلاء الذين آمنوا وإليك قول الله تعالى:

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

سورة الشعراء الآيات (224 ــ 227)

قرأ المسلمون القرآن وحفظوه، وتأثروا به، بأسلوبه، بألفاظه، بالصور والأخيلة، بالعقيدة الجديدة التي جاء بها، وكذلك تأثروا بالحديث الشريف، فما زال القرآن الكريم والحديث الشريف أهم عوامل توحيد اللغة، وحفظها، كما أنه أساس العلوم الدينية الإسلامية، والعلوم اللغوية.

والفتوحات الإسلامية التي امتزج فيها العرب بالعجم، فرساً وروماً، وغيرهم، من الشعوب، فتأثروا وأثروا في كثير من عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم ولغاتهم لا سيما في صدر الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين، حيث ظهر ذلك بوضوح في العهدين الأموي والإسلامي. وتحسنت أحوال العرب المادية والاقتصادية، حيث اتسعت دولتهم، وتوفرت الموارد النقدية، إلا أن القلاقل والحروب والفتن، التي ظهرت في آخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم استمرت في خلافة علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ ثم انقسام المسلمين إلى فرق وأحزاب، ابتداءً من العهد الأموي إلى العباسي، كل ذلك أقلق البلاد والعباد.

لا ريب أن كل هذا أثر في الشعر، فقد كان الشعر في الطور الأول من الإسلام لا يختلف كثيراً في أسلوبه عنه في الجاهلية، وأما في المعاني والأغراض فكان الفرق بين العصرين، الجاهلي والإسلامي، واضحاً، إذ هجر الشعراء المسلمون الإغراض الوثنية، كالقسم بالأوثان، والكلام في العصبيات والفخر والخمر والثأر وحلّ مكانها المعاني الإسلامية كالتوحيد والتقوى والجهاد والجنة والنار، والزكاة والصلاة.

أما في الأسلوب فقد كان للقرآن الكريم أثر واضح في الألفاظ والتراكيب.

ويحسن بنا أن نشير إلى أن ما وصل إلينا من شعر صدر الإسلام الأول كان قليلاً، فقسم منه استمر على الأسلوب الجاهلي، والقسم الآخر صار إسلامياً ـ في أغراضه ـ فقلّ المديح، وقلت المبالغة، وضعف فن الهجاء وقل مثل ذلك في الغزل والنسيب.

كان الشعر في صدر الإسلام في خدمة الدعوة الإسلامية، والدفاع عنها، فهذا حسّان بن ثابت، شاعر الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوظف شعره لهذا الغرض، وهذا كعب بن زهير يمدح الرسول صلى الله عليه وسلّم في قصيدته (بانت سعاد)، وكثر في هذا الشعر الإسلامي رثاء الشهداء، والتمدح بالإسلام، وهجاء

المشركين وشعرائهم في نقائض يردون بها على شعراء المشركين، وينقضون ما قالوه ويهجونهم، وينزلون من شأنهم ومن إدعاءاتهم وأصبح الإسلام موضوعاً للنقائض بدل العصبية القبلية التي كانت سائدة في الجاهلية.

كما كثر فيه ضرب الأمثال وإيراد الحكم والوعظ، كما يحث على مكارم الأخلاق والتمسك بالآداب التي كانت مُثُلاً عليا حتى في أيام الجاهلية، وكل ذلك كان تأثراً بالقرآن الكريم والحديث الشريف.

وتطور الهجاء القبلي من هجاء يثير الأحقاد في النفوس، إلى نقاش سياسي بين شعراء الأحزاب المختلفين، ويتخلل ذلك النقاش تهديد جاهلي قديم، كقول حسان بن ثابت يتوعد إتباع الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ بعد مقتل الخليفة عثمان.

لتُسمعُنَّ وشيكاً في ديارهمُ الله أكبر يا ثارات عثمانا

أما الفنّ الشعري الجديد فهو فنّ البديعيات أي القصائد التي نظمت منه يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشهرها قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير.

وبالنظر في أسلوب شعر الخضرمين وهم الذين عاشوا في العصر الجاهلي والإسلامي نتبين أن الجانب الأقل من هذا الشعر قد بقي على نسجه المتين، كشعر الحطيئة، وبعض شعر حسان بن ثابت، أما الجانب الأكثر منه فقد أصبح أضعف شيء، وأقل براعة، وأكثر تخلخلاً لضيق المجال الوجداني الذي كان للشعراء الجاهليين من قبل، إذ نهى الإسلام عن المفاخرات والمناظرات وعن الغزل والهجاء وعن المبالغة والمباهاة.

وفقد الشعراء الميادين الرحبة التي كانت متوافرة في العصر الجاهلي، ووجد الشعراء المخضرمون أنفسهم في موقف يفتحون فيه طرقاً جديدة ينظمون فيها على الأغراض المستجدة.

حسّان بن ثابت

حياته وشعره:

هو حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام .... ابن يعرب بن قحطان ينتمي حسّان إلى قبيلة الخزرج الأزدية، والأزد إحدى القبائل اليمنية البارزة الكثيرة العدد. يذكر النسّابون أن قبائل الأزد لمّا جلت عن بلاد اليمن نزلت طائفة منها على ماء يُعرف بغسّان فنسبت إليه، وبعض النسّابين يدخل الأوس والخزرج وخزاعة في عداد القبائل الغسّانية، وهم يفاخرون بهذا النسب، فهذا حسّان يقول مثلاً:

إمّا سألت فاناً معشرٌ نُجُبٌ الأزْدُ نسبتنا والماءُ غسّانُ

ويقول كعب بن مالك:

وغسّان أصلي وهم معقلي فَنِعْمَ الأرومة والمعقِلُ

وينفي حسّان من جهة أبيه إلى بني مالك بن النّجار. وكان ثابت، أبو حسّان، من سادة قومه الخزرج وأشرافهم.

عاش حسّان ــ على أغلب الظن ــ مائة وعشرين سنة، نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام. وكما اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها، اختلفوا في السنة التي مات فيها، فبعضهم قال سنة (40) هـ، وبعضهم قال سنة (50) هـ.

كان لحسّان أخَوَان: أوّلهما أوس بن ثابت، وهو أخو حسّان لأبيه، وكان أحد من شهد الحقبة الأخيرة من الأنصار، وأخوه الثاني هو: أبو شيخ أُبَيّ بن ثابت، وكان أحَدَ من شهد بدراً من الأنصار. وعُرِف من أخوات حسّان كبشه ولبنى، وكلتاهما أختاه لأبيه، ولا يُعرَف من أبنائه غير عبد الرحمن، وعُرِف من بناته (أم فراس، وأم ليلى) وكانت تقارضه الشعر.

الأصالة الشعرية في أسرة حسّان :

جعل المبرد آل حسّان اعرَق بيوت العرب في قول الشعر، وكذلك ابن رشيق، فذكر أنه كان هو وأبوه وجدّه وأبو جدّه شعراء،وكذلك كان ابنه عبد الرحمن وحفيده سعيد بن عبد الرحمن شاعرين.

فالموهبة الشعرية أصيلة عند حسّان، وقد حفظ من شعر أبيه أبياتاً قالها في هجاء قبيلة مُزَينَة. وكما ورث عن أبيه الشعر ورث عنه المقدره الهجائية وبراعة السخرية، وهو ليس وحده الذي ورث قول الشعر، بل شاركه في هذا الإرث أختاه خولَه وفارعه.

كان حسّان في الجاهلية شاعر قبيلة، وشاعر بلاط، ففي الجانب القبلي كان يدافع عن الخزرج، ويعدد مناقبهم ومآثرهم، وذِكْر أيامهم والرد على قيس بن الحظيم الأوسي.

هذه المنزلة العالية لحسّان مكنَته من الاتصال ببلاط المناذرة والغساسنة،كان يَفِدْ على آل جلّق كما كان اتصل بملك الحيرة، النعمان الثالث. ومما قاله في مدح الغساسنة:

للّه درّ عصابةٍ نادمتهم ... يوماً بجلَّق في الزمان الأول

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأول

أدرك حسّان الإسلام، واعتنق مع قومه الدين الجديد، حين هاجَرَ الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبُه أبو بكر إلى المدينة التي أيَّدته ونَصرته.

وانبرى حسّان ومعه عبد الله بن رواحه وكعب بن مالك ينافحون عن العقيدة الجديدة وعن الإسلام، ويدفعون مزاعم شعراء قريش أمثال عبد الله بن الزبعري،وأبي سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص، وحين تطاول شعراء قريش على

الرسول والمسلمين قال صلى الله عليه وسلم للأنصار: (ما يمنع القوم الذين نصروا الله ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم، فقال حسّان: أنا لها يا رسول الله فقال عليه السلام. كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ قال حسان: لأسلنّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. فأَذِنَ له الرسول وقال: اللهم أيّده بروح القدس) فكان شعر حسّان في ذلك الوقت أشدّ القول عليهم.

قيل في حسّان: (فَضَل حسّان الشعراء بثلاث) كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام.

وصف الأصمعي حسّان بن ثابت أنه فحل من فحول الشعراء. وفي طبقات الشعراء لابن سلاّم:(أنَّ حسان كثير الشعر جيدة).

قال حسّان في كثير من أغراض الشعر وفنونه، وبرز في الفخر والهجاء قبل إسلامه، ثم حفِل بالأحداث والوقائع وأسماء الإعلام حتى وصفه صاحب الروائع أنه مؤسس الشعر التاريخي، لا سيما الإسلامي، لأنه حفل بأسماء المعارك بين المسلمين والمشركين، وذكر أسماء الصحابة وإعلام الإسلام وجمع بين الدين والسياسة.

يتميز شعر حسان، الجاهلي والإسلامي بصدق الشعور وقوة التعبير وقوة المعنى وعمق الفكرة، وحسن التمثيل، وزاد تميزه في الإسلام أنه اكتسب كثيراً من العذوبة والإخلاص، وكثرت فيه التعابير الإسلامية، والاقتباس من القرآن الكريم والشاعر حسان خليق أن يسمّى ــ كما يقول د.عمر فروخ في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ــ رأس البديعيين، فهو الذي بدأ فَنَّ الشعر في المديح النبوي.

قافية الهمزة

وَلست بكُفْءٍ:

في هذه القصيدة يمدح حسّان النبّي المصطفى ﷺ ويهجو الذي كان قد تعرّض للرسول وأصحابه في الفترة التي سبقت إسلامه:

(من الوافر)

عَفَتْ ذَاتُ الأصَابِعِ فَالجِوَاءُ، إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاءُ[1]

دِيَارٌ مِنْ بَني الحَسْحَاسِ قَفْرٌ، تُعفيّهَا الرّوامِسُ وَالسّمَاءُ[2]

وكانَتْ لا يَزَالُ بِهَا أنِيسٌ، خِلالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ[3]

فَدَعْ هذا، ولكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ، يُؤرقُني إذا ذَهَبَ العِشاءُ[4]

لِشَعْثاءَ الّتي قَدْ تَيّمَتْهُ، فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفاءُ[5]

كَأَنّ سَبِيئَةٌ مِنْ بَيْتِ رَأسٍ، يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ[6]

عَلَى أنْيَابِها، أوْ طَعْمَ غَضٍّ مِنَ التّفاحِ هَصّرَهُ الجَنَاءُ[7]

---

(1) عفت (الديار): درست وأمحت آثارها ـ ذات الأصابع، والدواء وعذراء: مواضع على مسافة من دمشق. وفي عذراء كان مقتل حجر بن عدّي وجماعته.

(2) بنو الحساس: هو أبناء الحساس بن مالك ـ الروامس والرمسات، الرياح التي تغطي آثار الديار بالتراب ـ السماء: أي مطر السماء، من باب المجاز المرسل.

(3) النّعم: جمع أنعام: الإبل وكذلك البقر والغنم.

(4) يؤرقني: يسهدني ـ إذا ذهب العشاء: أي إذا حلّ وقت النوم.

(5) شعثاء: اسم المرأة التي تيّمته وأسرت قلبه.

(6) السبيئة والسّباء: الخمر ـ بيتُ رأس: اسم لقريتين ينسب إليهما الخمر، إحداهما بالبيت المقدّس (معجم البلدان).

(7) الغض: الطريّ، الناعم ـ هصره: جذبه وأماله.

إذا مـا الأشـرِباتُ ذُكِـرْنَ يَوْمـاً ، فَهُـنّ لِطَيّـبِ الـرّاحِ الفِـدَاءُ
نُوَلِّيهـا المَلامَـةَ ، إنْ المَنَـا ، إذا مَـا كـانَ مَغْـثٌ أوْ لِحَـاءُ[1]
ونَـشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَـا مُلُوكـاً ، وأُسْـداً مَـا يُنَهْنِهُنَـا اللّقَـاءُ[2]
عَـدِمْنَا خَيْلَنَـا ، إنْ لم تَرَوْهَـا تُـبِيرُ النَّقْـعَ ، مَوْعِـدُها كَـدَاءُ[3]
يُبَـارِينَ الأعِنّـةَ مُصْعِدَاتٍ ، عَلَـى أكْتَافِهَـا الأسَـلُ الظِّمَـاءُ[4]
تَظَـلُّ جِيَادُنَـا مُتَمَطِّـراتٍ ، تُلَطِّمُهُـنّ بِـالخُمُرِ النّسَاءُ[5]
فَإمّـا تُعْرِضُـوا عَنّـا اعْتَمَرْنَـا ، وكَـانَ الفَـتْحُ ، وانْكَشَفَ الغِطَـاءُ[6]
وإلاّ ، فَاصْـبِرُوا لِجِـلادِ يَـوْمٍ ، يُعِـزُّ اللّه فِيـهِ مَـنْ يَـشَاءُ[7]
وَجِبْرِيـلٌ أَمِـينُ اللّهِ فِينَـا ، وَرُوحُ القُـدْسِ لَـيْسَ لَـهُ كِفَـاءُ[8]
وَقَـالَ اللّه : قَـدْ أرْسَـلْتُ عَبْـداً يَقُـولُ الحَـقَّ إنْ نَفَـعَ الـبَلاءُ[9]
شَـهِدْتُ بِـهِ ، فَقُومُـوا صَـدِّقُوهُ! فَقُلْـتُمْ : لا نَقُـوم وَلا نَـشَاءُ
وَقَـال اللّه : قَـدْ يَـسّرْتُ جُنْـداً ، هُـمُ الأنْـصَارُ ، عُرْضَـتُها اللّقَـاءُ

(1) الملامة : اللوم ـ المغث : الضرب غير المبرح ـ اللحاء : من لاحاه : نازعه وخاصمه..
(2) نهنه : عن الشيء : كفّ وزجر بالفعل أو القول.
(3) النقع : الغبار ـ كداء : جبل بمكة.
(4) الأعنة : جمع عِنان : سير اللجام ـ الأسل : الرماح.
(5) متمطّرات : جاريات بشدة كصوب المطر ـ الخُمُر : جمع خُمار : ما تغطي به المرأة رأسها ـ اللطم : ضرب الخدّ أو صفحة الجسد بباطن الكف.
(6) اعتمر : أدّى العمرة وهي زيارة الكعبة بمكة المكرمة.
(7) الجلاد : مصدر جالده بالسيف : ضاربه به.
(8) ليس له كفاء : لا نظير له.
(9) البلاء : الاختبار والامتحان.

لَنـــا فِي كُـــلّ يَـــوْمٍ مِـــنْ مَعَـــدٍّ سِـــبابٌ، أوْ قِتـــالٌ، أوْ هِجـــاءُ[1]

فَـنُحْكِمُ بـالْقَوافِي مَـنْ هَجَانَـا ، ونـضربُ حِـينَ تَخْـتَلطُ الـدّماءُ

ألا أبْلِـغْ أبَـا سُـفْيانَ عَنّـي، فَأنْـتَ مُجَـوَّفٌ نَخِـبٌ هَـوَاءُ[2]

بـأنّ سُـيُوفَنَا تَرَكَتْـكَ عَبْـداً ، وَعَبْـدُ الـدّارِ سَـادَتُهَا الإمَـاءُ[3]

هَجَـوْتَ مُحَمّـداً فأجَبْـتُ عَنْـهُ، وَعِنْـدَ اللّهِ فِي ذاك الجَـزَاءُ

أتَهْجُـؤهُ، وَلَسْتَ لَـهُ بِكُـفّءٍ، فَـشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَـا الفِـداءُ

هَجَـوْتَ مُبَارَكـاً ، بَـرّاً ، حَنِيفـاً ، أمِـينَ اللّهِ، شِـيمَتُهُ الوَفـاءُ[4]

فَمَـنْ يَهْجُـو رَسُـولَ اللّهِ مِـنْكُمْ، وَيَمْدَحُـه ، ويَنْـصُرُهُ سَـوَاءُ

فَـإنّ أبـي وَوَالِـدَهُ وَعِرْضـي لِعِـرْضِ مُحَمّـدٍ مِـنْكُمْ وِقـاءُ

فَإمّـا تَـثْقَفَنَّ بَنُـو لُـؤيٍّ جُذَيْمَـةَ ، إن قتلـهم شـفاء [5]

أُولئِـكَ مَعْـشَرٌ نَـصَرُوا عَلَيْنَـا ، فَفِـي أظْفَارِنَـا مِـنْهُمْ دِمَـاءُ[6]

وَحِلْـفُ الحـارِثِ بْـن أبـي ضِـرَارٍ، وَحِلْـفُ قُرَيْظَـةٍ مِنّـا بَـرَاءُ[7]

لِـسَاني صَـارِمٌ لا عَيْـبَ فِيـهِ، وَبَحْـرِي لا تُكَـدِّرُهُ الـدّلاءُ[8]

---

(1) معدّ: اسم لقبائل العرب في شمالي الجزيرة ومنها ربيعة ومضر.

(2) أبو سفيان بن أمية، والد معاوية حارب النبي في بدر ثم أسلم. مات سنة 32 هـ (652) م – المجوّف: الجبان الذي لا قلب له ـ النّخب: المنزوع الفؤاد، الجبان وكذلك الهواء.

(3) بنو عبد الدار: من بطون قريش ـ الإماء: جمع أمة، الجارية.

(4) الحنيف: المستقيم والموحّد في دينه.

(5) ثقفه: ظفر به وأدركه وثقفه بالرمح: طعنه ـ جذيمة: هو ابن عدي بن كنانة زعيم قبيلة كانت تقيم قرب مكة.

(6) نصروا علينا: أي نصروا أعدائنا.

(7) بنو قريظة: من قبائل يهود يثرب.

(8) صارم: ماض في كل أمر ـ الدلاء: جمع دلو، ما يستقى به.

الدراسة الفنية للأبيات/ ولستَ بكفءٍ:

في هذه الأبيات ــ القصيدة ــ يمدح الشاعرُ الرسولَ ــ صلى الله عليه وسلم ــ محمداً، ويهجو أبا سفيان بن الحارث الذي كان تعرض للرسول وأصحابه في الفترة التي سبقت إسلامه. والمقرر منها للدراسة (15) بيتاً.

استهل الشاعر قصيدته بالوقوف على الأطلال، وهي مقدمة كان قد اعتاد عليها شعراء الجاهلية، وقد علّل القدماء هذه الظاهرة ــ عنده ــ إن هذا الجزء من القصيدة كان قد نظمه حسّان في الجاهلية، فلما جاء الإسلام وأراد أن ينظم قصيدة في مدح الرسول ــ صلى الله عليه وسلم أكمل هذه المقدمة. وقد أشار حسّان إلى هذا حين قال: هذا شيء قلته في الجاهلية.

وهناك تعليلات أخرى، ربما تكون أقوى مما ذكرنا منها: لم يكن صعباً على حسّان أن ينظم قصيدة جيدة في مدح الرسول وفي استعداده ليوم عظيم وهو فتح مكة، ومنها أيضاً، أن حسّان ربما نظمها قبل تحريم الإسلام للخمر تحريماً نهائياً.

إذن بدأ الشاعر بالوقوف على الأطلال ثم بالغزل، فأشار في الأبيات الثلاثة الأولى إلى الديار، ذات الأصابع، والجواء، وعذراء، وهي مواضيع على مسافة من دمشق، وفي عذراء كان مقتل حجر بن عدي وجماعته. ويشير إلى أن هذه الأماكن قد درست، وانمحت آثارها، وأصبحت ديار بني الحسحاس خالية منهم، وتغطيها الرياح بالتراب، وبعد أن كانت فيما مضى عامرة بأهلها، تروح وتغدو خلال سهولها الواسعة الإبل والشاء.

وفي الأبيات الأربعة التالية ينتقل الشاعر ليتكلم عن حبيبته فيقول: دعك من ذلك، فهل هناك من رد عنّي طيف الحبيبة، الذي يؤرقني ويبعد عني النوم إذا حلّ وقت النوم، وهذا الطيف هو طيف شعثاء والتي تيّمته وأسرت قلبه، وليس لقلبه من

حبها شفاء، وكأن الخمر المصنع في قرية بيت رأس (وهي قرية بالأردن، شمال شرق) عسل وماء عند مزجها بالماء أو طعم تفاح طري ناعم.

وفي الأبيات من (8 ــ 10) يتحدث الشاعر عن الأشربات فيقول: (ونوليها أي نسند إليها اللوم إذا حدث ضرب باليد غير مبرح أو كان نزاع وخصام وسباب، وعندما نشربها تجعلُنا ملوكاً واسوداً لا يصدّنا ولا يزجرنا اللقاء في الحرب.

وبعد هذه المقدمة في الحديث عن الأطلال والحبيبة وطيفها والخمرة وشربها، ينتقل الشاعر في الأبيات من (11 ــ 13) إلى وصف الخيل فيقول: (إننا نعدم خيلنا، إذا لم تروْها تثير غبار المعارك في اللقاء، في كداء، (وهو جبل بمكة)، وخيلنا تتبارى وهي في لجامها، وفي الصعود، وعلى أكتافها الرماح المتعطشة للدماء، وتبقى خيلنا جاريات بشدة وسرعة، والنساء تضربها بباطن الأكف كان الغطاء، بما يغطّين به رؤوسهنّ يُزِلْن عنها ما عَلِقَ بأعراضها من غبار وأشواك.

وفي البيتين (14، 15) يقول الشاعر: (فإن لم تعترضوا طريقنا أدّيْنا العمرة بمكة المكرمة، وإلاّ كان الفتح، وانكشفت الأمور وتمّت، وإن لم تفعلوا فعليكم أن تتحملوا تصبروا ليوم المجالدة، أي المضاربة، بالسيوف والقتال، حينها يعزّ الله المسلمين، وينصر من شاء.

ثم يكمل الشاعر قصيدته فيقول:

وجبريـــــل رســـــول الله فينـــــا وروح القـــدس لـــيس لـــه كفـــاء

وإن الله قد أرسل محمداً رسولاً، وقد صدّقناه، وأنتم لم تصدقوه، بل حاربتموه، وأبو سفيان بن الحارث قد هجا الرسول، والشاعر أجاب عنه فقال: (أنت يا أبا سفيان لست له بكفء، وأنت الفداء للرسول، وأن أبي ووالده وعرضه ــ كما يقول حسان ــ فداء للرسول صلى الله عليه وسلم.

كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، وهما من قبيلة مُزينة، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بني مرّة الذُبيانيين. وقد تلقّن الشعر عن أبيه، مثله في ذلك مثل أخيه بُجير ومثل الحِطيئة. يُقال عن كعب أنه كان يخرج إلى الصحراء مع والده، فيلقي عليه البيت أو شطر البيت ويطلب منه ، يجيزه تمريناً له وتدريباً. ومن المعروف أن كعباً وبجيرا والحطيئة أدركوا الإسلام، وكان بجير أسبق من أخيه كعب إلى الإسلام، وقد هجاهُ كعبٌ وآذى رسول الله ﷺ، وكان من قوله:

ألا أبلغا عنّي بجيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ– ويحك – هل لكا

شربتَ مع المأمون كأساً رَويّةً ... فأنهلك المأمونُ منها وعلّكا [1]

وخالفتَ أسبابَ الهدى وتبعته ... على أيِّ شيءٍ – وَيّبَ غيرك [2] – دلّكا

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أماً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

لكن بجيراً أجابه، بعد أن سمع الرسول قوله وتوعده، وكان من قول بجير:

من مبلغٌ كعباً فهل لك في التي ... تلومُ عليها باطلاً وهي أحزمُ

لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهرُ القلب مسلم

وظل كعب على شركه حتى فتحت مكة، وانصرف من الطائف، فكتب إليه بجير أن الرسول ﷺ قتل كل من آذاه من شعراء المشركين إلاَّ من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يأتي المدينة مسلماً تائباً، فوقع ذلك من نفسه، فجاء وأعلن إسلامه وقال: بين يدي الرسول ﷺ:

---

(1) المأمون: الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر. النهْل: الشرب الأول. العلّ: الشرب الثاني.

(2) ويب غيرك: هلكت هلاك غيرك.

" هذا مقامُ العائذُ بك يا رسولَ اللّه، أنا كعب بن زهير، وأعلن إسلامه، ثم أنشده قصيدته في مدحه وتسامحه، تلك التي كان مطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ متيمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

فكساه الرسول ﷺ بردته، اكتسى بها كعبٌ حلةً لا تبلى، ولقبت من أجلها بالبردة.

كان كعب من فحول الشعراء المجيدين، قال الشعر في أغراض متنوعة منها: المدح والهجاء والفخر والحماسة، وكان على مذهب والده في تنقيح شعره. وقد غيّر الإسلام في نهج شعر كعب وأمدّه بكثير من الصور، ورقّق ألفاظه ومعانيه، وقضى على النزعات الجاهلية ـ عنده ـ وحولها إلى أمل بعطاء اللّه، وفرج قريب من رحمته الواسعة.

البردة للشاعر كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... متيمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

وما سعادُ غَداةَ البَيْن إذ رَحَلوا ... إلا أغن عضيضُ الطرْف مكحولُ[1]

أكرمْ بها خُلّة لو أنها صدقت ... موعودَها أو لو أن النصح مقبول[2]

لكنّها خلّة قد سيط من دمها ... فَجْع ووَلْع وإخلال وتبديل

فما تدومُ على حال تكونُ بها ... كما تَلَوّنُ في أثوابها الغول[3]

ولا تَمَسّكُ بالوعد الذي زَعَمت ... إلاّ كما يُمْسك الماءَ الغَرابيل

فلا يَغُرّنْكَ ما منّتْ وما وعدت؛ ... إنّ الأمانيّ والأحلام تضليل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً؛ ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

أمست سعادُ بأرض لا يُبَلِّغها ... إلا العِتاق النجيبات المَراسيل[4]

ولن يُبَلّغَها إلا عَذافرة ... لها على الأيْن إرقال وتَبْغيل[5]

تسعى الوشاةُ بجَنْبَيْها، وقولُهمُ: ... إنك، يا ابن أبي سُلمى، لَمَقْتول!

وقال كل خليلٍ كنت آمِلُه: ... لا أُلْهِيَنّكَ، إني عنك مشغول

---

(1) الأغن: الذي في صوته غنة (لحن كأنه يخرج من أنفه). غضيض الطرف: فاتر اللحظ منكسر البصر يتطلع إلى الأرض. المكحول: من كان فيه كحل (بفتح الكاف والحاء) طبيعي: سواد على أطراف جفونه حيث تلتقي إذا أطبقها (يشبه الشاعر حبيبته بالغزال الصغير).

(2) الخلة: الصديقة ... لو أن النصح (في تركها مقبول).

(3) زعم العرب القدماء أن الغول تظهر للناس في ألوان مختلفة.

(4) المرسال: الناقة الخفيفة الجري.

(5) العذافرة: الناقة الغليظة الشديدة. الاين: التعب. الارقال: الأسرع صعداً. التبغيل: جري وسط في السرعة.

فقلت: خَلّوا سبيلي، لا أباً لكمُ، فكل ما قدّر الرحمن مفعول
كل ابنِ أُنثى، وإن طالت سلامته، يوماً على آلةٍ حدباءَ محمول [1]
أُنْبِئْتُ أن رسول الله أوعدني، والعَفْو عند رسول الله مأمول
مهلاً، هداكَ الذي أعطاك نا فلةَ القرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيل،
لا تأخُذَنّي بأقوال الوشاةِ، ولم أُذْنِبْ، وإن كَثُرتْ فيّ الأقاويل
لقد أقوم مُقاماً لو يَقوم به أرى وأسمع ما لو يسمعُ الفيل،
لظَلّ يُرْعَدُ إلاّ أن يكونَ له من النبي بإذن الله تَنْويل [2]
إنّ الرسولَ لَنُورٌ يُستضاء به مُهَنّدٌ من سيوف الله مسلول،
في عُصبة من قُريشٍ قال قائلهم ببطن مكّة، لمّا أسلموا: زُولوا [3]
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللقاء ولا مِيل مَعازيل [4]
شُمّ العرانينِ أبطال لَبوسُهم من نسج داوودَ في الهَيْجا سَرابيل [5]
لا يَفْرَحون إذا نالت رِماحُهمُ قوماً، وليسوا مَجازيعاً إذا نِيلوا [6]

---

(1) الحدباء: المعوجة، نعش (يقصد: كل إنسان سيموت).

(2) يرعد (بالبناء للمجهول): يرتجف. التنويل: العطاء والمنة (يقصد: العفو عني).

(3) زال يزول: ذهب (إشارة إلى الهجرة إلى المدينة).

(4) النكس: الضعيف. الكشف: الذين ينهزمون عند أول صدمة. الميل جمع أميل: من لا يثبت على ظهر الحصان، الذي يميل إلى الهرب من المعارك. المعزال: الذي لا سلاح معه.

(5) شم الأنوف: قصبة الأنف عندهم مرتفعة (أنوفهم مقوسة، كناية عن شرف الأصل). اللبوس: اللباس، (وهنا معناها الدروع). من نسج داوود، كان داوود مشهوراً بعمل الدروع. الهيجا أو الهيجاء: الحرب. السربال: الثوب السابغ (الطويل الواسع).

(6) لا يفرحون إذا تغلبوا على خصمهم ولا يجزعون (يخافون ويضطربون) إذا تغلب عدوهم عليهم. التهليل: التكذيب (الجبن عن القتال الشديد). – لا يجرحون إلا في صدورهم لأنهم يهجمون دائماً على العدو ولا يولون ظهورهم (يهربون منه).

لا يَقَــعُ الطعــنُ إلا في نحــورِهِمُ، وما لهمْ عن حِياضِ الموت تهَليل

الشرح والمعاني:

البيت الأول: بانت: فارقت، متبول: مُتيّم، متذلل بالحب، مكبول: محتبس عندها، مقيد، رحلت سعاد فقلبي اليوم قد أسقمه الحبّ وأضعفه، وقد استولى عليه الهوى ولم يجب ما يفديه.

البيت الثاني: الأَغنَّ: الذي في صوته غُنّة. عضيض الطرف: فاتر الطرف.

أنه يصف سعاد في يوم رحيلها بأنها أغنّ في صوتها غُنّة، وهي فاتورة اللحظ، منكرة، تتطلع إلى الأرض بسبب خجلها وعيناها مكحولتان بالطيب، فهي كالغزال الصغير الجميل.

البيت الثالث: خُلة: للذكر والأنثى. يقول لا أتهمها لو لم يكذب موعِدُها، ولو قبلت نصحي لها في أمري، ولكن هذا مما ينقصها.

وفي البيت الرابع حتى الثامن: سيط: خُلِط. الفجَع: المصيبة، الوَلْع: الكذب. عرقوب بن نصر: رجل من العمالقة نزل بالمدينة قبل اليهود، وكان صاحب نخل، وعد صديقه ثمر نخلة من نخله، فلما أثمرت واعده وأجله لمواعيد كثيرة ثم لم يفِ بوعده، وذهب موعود عرقوب مثلاً. الغول: السعلاة. الغرابيل: جمع غربال. والأباطيل: جمل باطل.

يقول الشاعر: أنها ــ عن سعاد ــ لا تبقى على حال واحدة، بل تتلوّن كما يتلون الغول، كما يظهر للناس بألوان مختلفة، كما كان يزعم العرب في القديم، فهي لا تتمسك بالوعد الذي تعده إلاّ كما تتمسك الغرابيل بالماء، ولذا فهي لا تفي بما وعدت به. وملخص القول: تضليل وتكذيب كالأماني والأحلام، لا تتحقق.

وفي البيت التاسع: يشير الشاعر إلى أن سعاد في ترحالها قد أصبحت في أرض لا يصل إليها إلا الإبل القوية الخفيفة السريعة.

ويكمل في البيت العاشر: وصف من يصل إلى الأرض التي حلّت فيها سعاد فيقول وكذلك لا يصلها إلا الناقة القوية الشديدة القادرة على الصعود بسرعة، الخفيفة الجري.

ثم ينتقل إلى الموضوع الأساسي الذي قيلت من أجله القصيدة وهي العفو عنه، ومدح الرسول ﷺ فيقول: تسعى الوشاة بجنبيها وهم يقولون أنك يا بن أبي سلمى لمقتول، إذ هدَرَ الرسولُ دَمَه.

وكل خليل، صاحب، كنت آمل مساعدته قال لا أريد أن أشغلك عمّا أنت فيه من الفزع والخوف، وأنا مشغول بأمور نفسي. وكان جوابي في البيت الثالث عشر: دعوني – لا أبالكم – فكل ما قدّره الرحمن وقضاه نافذ وواقع.

وفي البيت الرابع عشر: يبين مصير كل إنسان، وهو الموت، مهما طال عمره وامتدت سنواته في هذه الحياة، فهو ميّت، وَيُحمل في نعْشِه (الآلة الحدباء).

وفي البيت الخامس عشر: يذكر الهدف الذي يرمي إليه في هذه القصيدة: علمت أن رسول الله أوعدني، هددني، بالموت، ولكني مع هذا آمِل أن يعفو عني، والعفو عند رسول الله مأمول على يقين.

بعد الأبيات الخمسة عشر يمدح الرسول فيقول:

الرسول نور يستضاء به، وهو شجاع، وسيف مسلول، من سيوف الله، ثم يشير إلى الهجرة الأولى إلى الحبشة، للمحافظة على أرواح المسلمين من كفار قريش، وقد هاجروا من منطلق القوة وليس من منطلق الظروف، والمسلمون أصحار عزّة وكبرياء، وشجعان، يلبسون الدروع القوية، وكأنها من صنع داوود عليه السلام، وهم يمشون إلى المعركة بكبرياء، وشجاعة، وإذا انتصروا على أعدائهم لا يفرحون كثيراً ولا يحزنون إذا خسروا المعركة، فهم لا يهربون من مواجهة الأعداء.

أهمية القصيدة، ومكانتها الأدبية:

كثر الذي شرحوا البردة، ومنهم ابن دريد والتبريزي وابن هشام والباجوري. وطبعت أكثر من مرة في الشرق، وفي أوروبا، مع الشروح المستفيضة، كما ترجمت إلى لغات كثيرة منها اللاتينية والفرنسية والألمانية والإنجليزية والإيطالية.

الدراسة الفنية:

أشرنا سابقاً أن القصيدة التي سميت (البردة) قد قالها كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ، وذلك بعد أن أسلم وأعلن إسلامه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، وتقبّله الرسول الكريم، وأنشدها بين يديه ﷺ، يبين فيها توبته وإسلامه، ويمدح الرسول، وصحابته الذين كانوا معه، وتقع القصيدة في ثلاثة أقسام:

الأول: توطئة غزلية على عادة شعراء عصره.

الثاني: وصف الناقة التي توصله إلى المحبوبة.

الثالث: اعتذار ومدح للرسول والصحابة.

ومن الملاحظ أن في القسم الغزلي ألواناً وتشبيهات واستطراداً وتشبيه الخليلة بالظبي، والاستطراد إلى وصف الخمر ثم إلى وصف الماء البارد.

أما القسم الوصفي ففيه تتجلّى براعة الشاعر الذي نشأ على حبّ الطبيعة، والتأمل في جزيئاتها، ولكن كلامه مُشبَع بالأوصاف التقليدية.

وفي القسم الأخير وهو قسم المدح ففيه الاعتذار والمدح، وفيه تأثر بأسلوب النابغة في حُسْن التوسّل والتذلل ووصف الجزع، وأمّا المديح فقد جاء قسم منه في وصف الأسد الذي شبه به الشاعر الرسول محمد، وقد اقتصر في مدحه للرسول على هيبته، وهداه، كما مدح المهاجرين بالشجاعة والإقدام.

وفي شعره هذا الكثير من حسن السبك ودقة التصوير، وجزالة الألفاظ.

والقصيدة من البحر البسيط، لا تتجاوز (58) بيتاً، والمطلوب للدراسة (15) بيتاً فقط.

تحليل القصيدة / قصيدة البردة

أولاً: الغرض من هذه القصيدة الاعتذار للرسول والصحابة وقد سار في مدحه هذا على طريقة النابغة الذبياني مع فارق أن النابغة مدح ملكاً ظالماً كعب بأمل العفو من إنسان كريم هو الرسول عليه الصلاة والسلام ويطلب من الرسول أن لا يأخذه في أقوال الوشاة.

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

ثانياً: اتبع طريقة الشعراء في الغزل المصطنع تمهيداً للمدح.

ثالثاً: الألفاظ واضحة وملائمة للجو النفسي تبعاً لكل موقف خوف ورجاء واستعطاف.

رابعاً: الأساليب متنوعة بين الخبر والإنشاء، الأمر يثير المشاعر ويحرك الذهن ويشوق السامع والقارئ.

خامساً: استعان الشاعر ببعض وسائل التوكيد لتقوية المعاني مثل أن الرسول بنور يستضاء به، لا يقع الطعن إلا في نحورهم، لقد أقوم.

سادساً: من المحسنات البديعية. الطباق: أوعد في، العفو الالتفات من الغيبة إلى الخطابة:

- نبئت أن رسول الله أوعدني..
- مهلاً هداك الذي أعطاك...

سابعاً: الصور البلاغية معبرة أن الرسول لنور يستضاء به. مهند من سيوف الله مسلول شم العرانين، لا يقع الطعن إلا في نحورهم، ما لهم عن حياض الموت تهليل.

ثامناً: شخصية الشاعر تظهر ملامح من قصيدته: مؤمن يريد أن يعتذر عما

نسب إليه. شعوره قوي بعظمة الإسلام، موفق في قصيدته هذه في التعبير وفي التأثير على القارئ وعلى السامع.

تاسعاً: اختار البحر البسيط فجاءت ألفاظه سهلة عذبة موسيقية والبحر البسيط الذي بنى القصيدة وعليه بحر ملائم للاعتذار والمدح وفي القصيدة ترابط في المعاني وجمال في التصوير.

عاشراً: الشاعر مخضرم ولد في الجاهلية وعاش في الإسلام ولذلك تأثر بما كان في الجاهلية والإسلام ابتداء بالغزل ووصف المطية/ الناقة التي توصله إلى الأرض التي أصبحت فيها سعاد حيث يعول.

أمست سعادُ بأرض لا يُبَلِّغها إلا العِتاق النجيبات المَراسيل

وتأثره بالبيئة الإسلامية تظهر في المعاني والألفاظ التي يستخدمها في قصيدته كتكرار لفظ رسول الله والأمل في عفو رسول الله وهداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعظ وتفصيل وربط الأعمال بمشيئة الله والنبي داوود أَلَنَّا له الحديد ولا غرور عند النصر ولا يأس عند الهزيمة من صفات الإسلام.

الحادي عشر: يشير الدارسون والمحققون في شرح بعض الأبيات إلى أكثر من رواية مثل: لم يجز مكبول ـ لم يُفدَ.

غداة البين إذ رحلوا ـ غداة البين إذ برزت

وفي البيت الثالث يروي:

يا ويحها خُلّة لو أنها صدقت ما وعدت أو لو أن النصح مقبولُ

مدخل إلى الأدب الأموي

بنو أمية بطن من بطون قريش، قاومت الإسلام في بدايته بزعامة أبي سفيان، ولما انتصر الإسلام يوم فتح مكة أعلن أبو سفيان إسلامه، ودخلت كل القبائل من قريش في الإسلام، وبعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ راح بنو أمية يطالبون بدمه ويعتبرون أنفسهم أوصياء لأن عثمان من بني أمية، والذي تزعم هذه الحركة هو معاوية بن أبي سفيان حيث كان أميراً على الشام.

وحين بويع علي بن أبي طالب بالخلافة بقي معاوية على موقفه، وتأخر في مبايعة علي، يشترط الأخذ بدم عثمان، ومما زاد الأمر تعقيداً في خلافة علي خروج كل من طلحة والزبير وعائشة يطالبون ــ كذلك ــ بدم عثمان، وتوجهوا صوب البصرة، واتخذوها مركزاً لهم. واضطر عليّ أن ينتقل من المدينة إلى الكوفة، لتكون الكوفة مركزاً لخلافته. ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا في معركة الجمل، واستطاع علي بن أبي طالب أن يُقنع عائشة أم المؤمنين بالرجوع إلى المدينة، وظل الجو خالياً لمعاوية على رأس المعارضة، يطالب بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان، أسرع علي إلى العراق، بعد أن بايعه أهلها جميعاً، لملاقاة معاوية في صفين، وكادت المعركة تنتهي لصالح علي وجماعته لولا الخديعة التي قام بها عمرو بن العاص حيث كان في صف معاوية، وذلك برفعه المصاحف على رؤوس الرماح. ثم أخذ الأمويين يقنعون الناس أنهم أصحاب حق، وأنّ على الأمة أن تعرف وجهة نظرهم. وكان لسان حالهم الشعراء الذين ينظمون الشعر تأييداً لموقف الأمويين، ودحضاً لآراء الآخرين. ومن الشعراء الذين أيدوا بني أمية كعب بن جُعَيل التغلبي، والأخطل، ومسكين الدرامي، والمتوكل الليثي، وعبد الله بن همام السلولي، وعبد الله بن خارجة. ومن الشعراء الذين بالغوا في مدح الأمويين وتأييدهم يزيد بن الحكم. ونحن نجد شعراً

كثيراً لتوضيح هذا الموقف، ومنه قول كعب بن جُعيل:

أرى الشام تكره مُلكَ العراق وأهل العراق لهم كارهونا

وقالوا علي إمام لنا فقلنا رضينا ابن هندٍ رضينا

ورد عليه بعض شعراء العراق بقوله:

أتاكم علي بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا

فإن يكره القوم مُلكَ العراق فَقِدْما رضينا الذين يكرهونا

وبعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب، تطورت الظروف، وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية، وبايع الناس معاوية بالخلافة، ولكن بقيت حركات سياسية تعارض الأمويين في السر والعلن، وتعمل بكل قوة على تقويض حكمهم مثل الشيعة والخوارج، كما عارضهم من قبل آل الزبير، وبعد مقتل عبد الله بن الزبير، وهزيمة مصعب في العراق انتهت معارضة آل الزبير لهم.

تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب لمعاوية عن الخلافة جمعاً للكلمة، ودرءاً للشر، فصار معاوية بذلك خليفة للمسلمين، وأخذ يعمل جاهداً على توطيد حكمه، ثم إقراره في بيته، والحيلولة بين الهاشمين وبينه، وسلك له سبل الترغيب والترهيب، وتوجه بالبيعة لابنه يزيد، وبهذا استقرت الحكومة أموية، وأخذت في التاريخ الإسلامي السياسي لوناً جديداً، وقد لاحظ ذلك كثيرون منهم عبد الرحمن بن أبي بكر، وقد قال في هذا الموضوع عبد الله بن همّام السلولي، وهو من مؤيدي الأمويين:

فإن تأتوا برملةَ أو بهندٍ نُبايعْها أميرة مؤمنينا

إذا مات كسرى قام كسرى نَعُد ثلاثة مُتناسقينا

واستطاع معاوية أن يرهب الخوارج، ويسكت الشيعة، وينهض بشيء من

الفتوح الخارجية، ولكنّ بيعة يزيد كانت خرقاً واضحاً لعهد معاوية مع الحسن بن علي، وانتصاراً للشام على سائر الأقطار الإسلامية، مما أثار حفيظة كثير من الناس منهم عبد الله بن الزبير، والشيعة والخوارج وغيرهم.

هذا معناه أننا أمام عهد جديد في التاريخ الإسلامي السياسي يمتاز بالأوضاع التالية:

أولاً: وضع الحكم الإسلامي واستقراره في أسرة واحدة هي الأسرة الأموية. يتوارث أفرادها الحكم بعد أن كانت حكومة شورية.

ثانياً: ولاية العهد، وهي مسألة ذات حدّين، تقيد عدم الاضطراب عند موت الخليفة. وتضر فيما بعثت من تنافس حول المرشحين لها، وكيد بعضهم لبعض، مما آذى الحكومة نفسها.

ثالثاً: الولاة الذين يحكمون الأقاليم الإسلامية باسم الخلفاء، وكذلك القوّاد الذين يتزعمون الجيوش الفاتحة شرقاً وغرباً، إذ نجد عند البعض منهم سياسة خاصة بعثت شعراً سياسياً ممتازاً.

رابعاً: الأحزاب السياسية، ذات المناهج النظرية أو العملية، أخذت تدافع عن آرائها بالسيف واللسان، منهم الشيعة، والأمويون والزبيريون، والخوارج. وكل له شعره السياسي، وشعراؤه، وطابعه الأدبي الخاص به.

خامساً: السياسة الخارجية، التي تصل الدولة الإسلامية مع دولة الروم ودولة الفرس، والترك، والفرنجة.. والموالي. وكل من هؤلاء لهم حججهم وآراؤهم. ودار شعرهم حول آرائهم ومواقفهم وحقّهم في المساواة الإسلامية.

المدينة ومكة:

لا نكاد نصل إلى عصر الأمويين حتى تصير المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر. وإذا كانت المدينة فقدت أهميتها السياسية، فإنها ظلت تحتفظ

بالتراث الديني، كما ظلت مستقراً لأكثر طوائف المجتمع العربي رقة وسلامة. وهيأ لذلك عوامل مختلفة من التراث الواسع، مما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر، بل إلى الترف البالغ. كل ذلك هيأ لأن تعيش المدينة في هذا العصر عيشة هنيئة. ولم يعكر عليها هذا الصفو والنعيم شيء، فقد تجنبت السياسة، لذلك نجد أهلها ينعمون بألوان الطعام المختلفة، رافلين – رجالاً ونساءً – في الثياب الحريرية، وأنواع الطيب، وبالغت النساء في اتخاذ صنوف من الجواهر والحلي.

وإذا تركنا المدينة إلى مكة المكرمة وجدناها متشابهة لها في كل ما ذكرناه من مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل به من شيوع شعر الحب والغزل.

فمكة لم تكن تقل في هذا العصر ثراء وغناء عن المدينة. ولم تكن مكة تغرق في دور وقصور وعيون فحسب، بل أخذت تغرق في الترف والنعيم. فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون في صحاف من الذهب والفضة، ويلبسون الحرير والسندس والديباج، ويستعملون الطيب وأنواع العطور. كما اكتظت مكة بالرقيق الذي قام بحاجات أهلها في مطاعمهم ومشاربهم، وفي الغناء كذلك.

وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً – في هذا العصر – غلب عليه الطابع المادي الصريح. ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبي ربيعة وأمثاله أقل صراحة من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، ويحسن بنا أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر وأقرانهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد في المدينة ومكة، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة.

أما نجد وبوادي الحجاز فلم تكن العيشة فيها تتشابه ولا تتساوى مع ما كان في المدينة ومكة، إذ استمرت القبائل تعيش على الرعي وطلب الكلأ، فهي عيشة

بدوية فيها غير قليل من الصعوبة والشقاء. ودفعت هذه الحياة الكثير من شعر البادية للوفود على الخلفاء في دمشق، وكذلك الولاة يطلبون نوالهم، ولا بد من ملاحظة أن نشاط الشعر في نجد والبوادي كان أقل مما كان عليه في الجاهلية، بسبب ما ذكرناه من أمانة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر، وكثرة من هاجروا في الفتوح شرقاً وغرباً.

وبعد أن دام حكم الأمويين قريباً من تسعين سنة، انهارت الخلافة الأموية، بسبب الانغماس في اللهو والترف، والانكباب على جمع الدينار والدرهم، وكثرة الدسائس والفتن والأحقاد من مختلف الفئات والأحزاب المعارضة للأمويين.

الفرزدق
(20 – 114) هجرية / (641 – 732) ميلادية

هو أبو فراس همّام بن غالب، ولد في البصرة من أب ذي وجاهة وكرم، وكان أجداده من أشرف بيوت تميم، ومن ذوي المآثر الحميدة بين العرب، فَنَشَأ في ذلك مزهواً بأمجاده، ولقب بالفرزدق لغلظ وجهه وشبهه بالرغيف.

كانت نشأته بدوية، كما كانت أخلاقه بعيدة عن أخلاق أشراف العرب إذ اندفع وراء الفسق والفجور. كان مزواجاً مطلاقاً لمن تزوجهُنَّ، وذكرها في شعره النوادر، التي طلقها مرغماً لاستغاثتها عليه بخصمه جرير.

كانت حياة الفرزدق مضطربة، ولم تكن علاقته مع أكثر ولاة العراق طيبة، وذلك لتقلبه، وخبث لسانه، وثقة بني أمية وعمالهم كانت ضعيفة به، بل لم يكونوا يطمئنون إليه، فهذا زياد بن أبية عامل معاوية على البصرة يتهدد الشاعر، فيهيم على وجهه متنقلاً من بلد إلى بلد آخر. وها هو ذا يقف إلى جانب آل الزبير ثم يرتد فيهجوهم بعد أن غلبوا على أمرهم. وها هو ذا يهجو الحجاج ثم يستولي عليه الخوف فيعود إلى الاعتذار والاعتراف بحق بني أمية. ثم هو يهجو آل المهلب، وهم قادة من الدولة الأموية، ثم يمدحهم ثم يهجوهم. وهكذا كان متقلباً متردداً في المبدأ والعاطفة، لا يهمه غير المنفعة.

إذن كانت حياته الاجتماعية والسياسية مضطربة، وكذلك كانت حياته الأدبية، إذ نشأت بينه وبين جرير حرب لسانية (النقائض) دامت نحو خمسين سنة. وكان لتلك الحرب صدى واسع في البلاد ضج بها المربد، وانقسم الناس بين الفرزدق وجرير، لم يشهد تاريخ الأدب العربي شاعرين تهاجيا بمثل ذلك، اصطبغ شعره بصبغة النضال السياسي، والنضال الأدبي، وكانت نزعته السياسية نزعة قومية.

على العموم كانت سياسة الفرزدق مترددة متقلبة، يُراعي الأصول، يسعى إلى الاستفادة من كل حال، فرائده – إذن – المصلحة الشخصية أو القومية، وكان التكسب هدفه في أكثر الأحوال. مدح ورثى وهجا، والرثاء عنده قليل، كان في بعض أقاربه، وبعض أرباب السلطان كالحجاج، وسلمان بن عبد الملك، لكن هذا الرثاء لم يأت عن عاطفة صادقة عند الشاعر.

مدح خلفاء بني أمية، فهم أولى الناس – كما يقول – في مديحه بالخلافة. ومدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بقصيدته المشهورة والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهمُ هذا التقي – النقي الصالح العلم

ومدح الفرزدق أمراء بني أمية وعمالهم، فإذا هم جبال الأرض وبهم ثباتها، وهم سيوف الله سلها على أعدائه. ومدْحُ الفرزدق صورةٌ لنزعته الجاهلية، وبيئته الأموية، وتنشئته الخاصّة.

والفرزدق شاعر النضال الأدبي من هجاء وفخر وهذا النضال الأدبي ما دار خصوصاً بين الفرزدق وجرير من تهاج ومشاتمة ويمتاز الهجاء عند الفرزدق بالفخر في الدرجة الأولى، وهو إذا هجا ارتفع وخصوصاً على جرير الذي جاء من أحقر بيوت تميم بينما الفرزدق من أشرفها، وموضوع فخر الفرزدق قومه ونفسه فقومه أعز العرب وأرفعهم شرفاً فهو القائل:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

والفرزدق في هجائه يعتمد على الفخر ويتقوى به ثم ينقض على خصمه بالهجاء فيرميه بالذلة ويصوره حقيراً سارقاً للشعر ويصور أهله موطناً للمخازي

وينشر مثابتهم ويفشي في النيل من أعراضهم.

وفي الوصف كان الفرزدق واسع الخيار دقيق الملاحظة جيد القصص فساعده ذلك على الوصف فكان من أبرع الوصافين في العهد الأموي وموضوعات وصفه كثيرة منها ما هو مأخوذ من البادية كوصف الذئب والأسد وحمار الوحش ومنها ما هو من حياة الحاضرة كالسفينة والجيش وما إلى ذلك ففي وصفه للذئب يظهر استعداده لأن يلبس الذئب من ثيابه وأن يقاسمه زاده إذ قال:

فلما دنا قلت إذن دونك إنني وإياك في زادي لمشتركان

فبت أسوي الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان

وهو في وصفه يتناول المرئيات التي من المعنويات ويمتاز بالدّقة وحسن التصوير.

أما الغزل عند شاعرنا الفرزدق فهو غزل شهواني فيه غلاظة ومجون وهذا المجون ظاهرة في الألفاظ والمعاني.

والخلاصة يعتبر الفرزدق شاعراً بدوي النزعة ميالاً إلى الفخر والتبجح وتتجلى بداوته في غلاظة ألفاظه التي ينحتها نحتاً حتى تأتي شديدة الجرس صلبة الإيقاع كأنها من صخر، ومن صفاته الأخرى أنه كان سليط اللسان، فاجر النفس، متين الشعر، سهل القصد.

ولشعر الفرزدق القيمة الأدبية العالية كما أن له قيمة تاريخية كبرى لأنه يتناول الكثير من حياة صاحبه وخصومه. أخبار العرب وأيامهم وعاداتهم وعلى أخبار الدولة الأموية وتصرف عمالها وولاتها والفتوحات التي تمت في عهدها، كما أن ألفاظه جزلة فخمة كثيرة الغرائب وقد بلغت نحو أربعين ألفاً وقيل بصدد ذلك لولا الفرزدق لذهب ثلثا اللغة بل قيل لذهب ثلثاها.

وصف الذئب

الفرزدق

وأطلس عسّالٍ وما كان صاحبا ... دعوت بناري موهنا فأتاني

فلمّا دنا قُلْتُ ادنُ دونك أنني ... وإياك في زادي لمشتركانِ

فبِتُّ أُسَوي الزادَ بيني وبينه ... على ضوءِ نارٍ مرةً ودخان

فَقُلْتُ لَهُ لمّا تكشّرَ ضاحكاً ... وقائم سيفي من يدي بمكاني

تعشَّ فإن عاهدتني لا تخونني ... نَكُن مثلَ من يا ذئب يصطحبانِ

وأنت امرؤٌ يا ذئبُ والغدْرُ كنتُما ... أخيين كانا أُرضِعا بلَبان

ولو غيرنا نبّهْتَ تلتمِسُ القِرى ... أتاكَ بِسَهْمٍ أو شباة سنان

وكل رفيقي كلَ رَحْلٍ وإن هما ... تعاطى القنا قوماهما أخوان

مناسبة القصيدة:

خرج الفرزدق في قافلة، وكان معه شاة مذبوحة، لم يتمكن من أكلها بسبب السفر، وشمَّ ذئب رائحة الدم، فلحق بالقافلة، وكان الفرزدق في نوبة من الحراسة، فخاف وبدأ يلقي قطعة قطعة من الشاة، والذئب يأكلها حتى شبع، ورجع عن ملاحقة القافلة، ولكن الشاعر يروي في القصيدة أنّه هو الذي دعا الذئب إلى القِرى، وأنه لم يقتله.

المفردات والمعاني:

أطلس: ذئب أغبر – لونه لون الغبار.

عسّال: يتلوى في سيره من الجوع.

دعوت بناري: أضرمتُ النار حتى يراني ويأتي. وهي عادة عند العرب في

الجاهلية إذ كانوا يوقدون النار وتسمى نار القرى.

موهناً: بعد منتصف الليل.

أسوي الزاد: أقسمه بالسوية.

تكشّر: أبدى أسنانه، كناية عن التهديد.

نكن يا ذئب مثل من يصطحبان: نكن صديقين.

اللَّبان: الثدي (بفتح اللام). وبكسر اللام: الرَّضاع.

السِّنان: نصل الرمح.

ويقول الشاعر: كنت (في البيت السادس) يا ذئب، أنت والغدر أخوين صغيرين، ورضعتما من ثدي واحد، والغدر طبع لك رضعته مع الحليب.

شرح القصيدة:

البيت الأول: أوقدت ناري على عادة العرب في الليل ليهتدي بها الضيوف ويأتوا لها لإكرامهم فجاءني ذئب أغبر يتلوى في سيره لنحوله من الجوع ولم تأتي كصاحب.

البيت الثاني: ولما اقترب مني قلت له اقترب فأنا وأنت سنشترك في الطعام وهنا تخاطبه وكأن شخص حَلّ ضيفاً عليه.

البيت الثالث: وقضيت الليلة التي جاءني فيها أحضر الزاد وأقسمه بالسوية بيني وبينه مُستضيئاً بضوء النار وهي تلتهب وبدخانها يخبو لهبها.

البيت الرابع: لما كشر الذئب وبدت أسنانه وأنيابه كناية عن الاستعداد للهجوم والاعتداء وسيفي قريب من متناول يدي لأضرب الذئب به وإذا هجم علي ولكن قول الشاعر ولما تكشر ضاحكاً وفي رواية أخرى لما يبتسم ضاحكاً يفسره بأن الذئب كان مسروراً بالضيافة.

وأكمل في البيت الخامس كل عشاؤك يا ذئب وان عاهدتني على عدم العذر فلا تقم بالخيانة وتغدرني فقد نستطيع أن نصبح صديقين ثم تلا البيت السادس فذكر صفة الغدر في الذئب فقال: أنت أيها الذئب أنت والغدر أخوين صغيرين رضيعين من ثدي واحد وهو الغدر والغدر طبع لك رضعته مع الحليب أو أنت والغدر رضعتما من ثدي واحد وهو ثدي الغدر.

ثم يلتفت الشاعر فيذكر أنه أكرمه واعتبره ضيفاً عليه، ولو كان المضيف شخص آخر غير الشاعر وجاءه الذئب يطلب الضيافة والكرم لرماه بسهم أو طعنه برمح.

ويختم القصيدة بقوله:

وكل رفيقين في السفر هما أخوان وإن كان قوماهما عدوين والمثل الدارج يقول (خيار المرافقة أي عدم التخاصم والتنافر).

الشاعر في هذه القصيدة يروي قصة قصيرة عن سفره ومجيء الذئب إليه في الليل بقصد الطعام.

جريـر

هو جرير بن عطية الخطفي.. بن تميم، من أب وضيع خامل بخيل، ويلتقي مع خصمه الفرزدق في الجد الأعلى وهو تميم، وأمّه هي أم قيس بنت سعيد من بني كليب بن يربوع. ولد باليمامه سنة 30 هـ، ونشأ فقيراً يرعى إبل قومه. وكان مع صغره فصيح اللسان. بدأ ينظم الشعر رجزاً، ومن صفاته أنه كان مرسل العنان لا يعوقه قيد، حادّ الذهن، خبيث اللسان. وقف في صفوف القيسيين، وهم من أنصار ابن الزبير، وأخذ يهجو اليمانيين أنصار بني أمية، واشتد الهجاء بين الشعراء، فترك اليمامة، وذهب إلى البصرة التي كانت مركزاً للحركات السياسية، وميداناً لشعراء النقائض. تمكن من الاتصال بالحجاج وإلى الأمويين على العراق، وأوصله الحجاج إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، ونال حظوة عنده.

جرير شاعر وجداني يجمع بين وضوح المعاني وجزالة الألفاظ، ومن الأغراض التي امتاز بها النسيب والغزل والرثاء والهجاء، كما برع في المديح والوصف.

وهناك إجماع على أن هذا الشاعر قد تفوق على أقرانه بالغزل النسيب والهجاء، وله مقدرة عظيمة في هذا الفن من الهجاء، لا سيما في ظاهرة التهكم والسخرية، وفي تتبع عورات الناس، وعلى شدة اللذع والإيلام. كما أنه يكثر في تعداد الصفات القومية والشخصية، ويختلق الحوادث والقصص ويكثر من التكرار لتثبيت ما يقوله في الأذهان، ويضع في كل ما ذكر في هجائه من غريميه الفرزدق والأخطل.

فن النقائض:

النقائض لغة: جمع نقيضة وهي النقض والهدم في البناء، والحل في العهد، وفي القول النقض المخالفة.

النقائض اصطلاحاً: فن شعري طريف، شاع في العصر الأموي، بل هي مناظرة فنية بالشعر في عصبيات القبائل والعشائر. وتوضيحاً لهذا القول نقول: النقائض هي أن يقول الشاعر قصيدة يهجو فيها شاعراً آخر، ويسخر منه ومن قبيلته، ويفخر بنفسه ورهطه، وبما يتمتع به من أمجاد في الجاهلية، وفي الإسلام فيجيبه شاعراً آخر بقصيدة أخرى على وزنها وقافيتها وربما على حركة رويّها، فينقض ما جاء به الشاعر الأول من معانٍ، ويضيف على ما جاء به الأول من الفخر والهجاء. والأمثلة التي توضح ذلك كثيرة، منها:

الفرزدق يقول:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

بيتاً بناهُ لنا المليك، وما بنى ... حِكَمُ السماءِ فإنّه لا يُنْقَلُ

لا يجتبي بفناء، بيتك مثلهم ... أبداً، إذا عُدَّ الفِعالُ الأفضلُ

ويرد عليه جرير بقوله:

أخزى الذي سَمَك السماء مجاشعاً ... وبنى بناءَك في الحضيض الأسفلِ

بيتاً يُجَسِّمُ قَيْنكُم بفنائِه ... دَنِساً مقاعدُه خبيث المدخل

إلى أن يقول:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... عزاً علاك فما له من منقلِ

وكذلك حين قال الأخطل:

خَفَّ القطين فراحوا منك أو بكروا ... وأزعجهم نوى في صرفها عِبَروا

فأجابه جريرٌ وقال:

قل للديار سقى أطلالك المطرُ ... قد هِجْتِ شوقاً وماذا تنفعُ الذِّكَرُ

وإذا تتّبعت النقائض تجد أن المسألة ليست مسألة هجاء فحسب، بقدر ما تكون مناظرة فنية، ولكن بالشعر وليست بالنثر.

والشاعران المتناقضان يختلفان في الموقف الإبداعي، فالشاعر الأول الذي قال شعره كان له حرية اختيار الموضوع والوزن والقافية والمعاني وقوة الانفعال. أما الشاعر الثاني صاحب الرد فهو مقيد بالموضوع الذي فرضه عليه خصمه، كما أنه مقيد بالبحر والوزن والقافية، وعليه يكون الشاعر الأول أطول نفساً، وأجود معنى وأقوى أسلوباً.

نشأة النقائض:

النقائض قديمة وقد عرفت منذ العصر الجاهلي حيث يحدث الخلاف والنزاع بين القبائل فينتصر لها شعراؤها هذا يقف مع هذه القبيلة ويفتخر بها في قصيدة ويعدد مناقبها ويهجو من يهاجمها ويعاديها فنرى شاعراً يقف مع قبيلته ومع أحلامها يرد عليه ويقلب ما أورد من مفاخر وينسب الفخر بقبيلته، والعصبية القبيلة هي المدعاة الأولى لنشوء النقائض في العصر الجاهلي ولم تكن هذه النقائض في هذا العصر قد وصلت إلى درجة الفن الذي وصلت إليه في العصر الأموي فكانت تتمركز في الرد على الشاعر ونقض المعاني التي أوردها في قصيدته.

ثم جاء الإسلام وحمي وطيس النقائض وانبرى شعراء المسلمين وشعراء المشركين ليدافع كل منهم عن موقف جماعته فدافع شعراء المدينة عن الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ودافع شعراء المشركين عن الكفر والشرك والأوثان وعلى رأس هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

وقد كان الهجاء في هذين العصرين: العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام

فناً بسيطاً فالهجاء فيه هجاء فردي ولم يكن دائماً التقيد بالرد على الخصوم من الشعراء بالوزن والقافية والبحر إذ لم تصل هذه النقائض إلى الدرجة المُتقنة التي وصلتها في العصر الأموي. ولقد ابتعدت نقائص شعراء الإسلام عن الفحش في الهجاء وعن جرح الأعراض وانتهاك الحرمات التي ظهرت واضحة جلية في نقائض جرير والفرزدق.

ولما جاء العصر الأموي ركز الخلفاء على إثارة العصبية القبلية وظهرت الأحزاب السياسية وغذاها الخلفاء وولاتهم بما أعد قوة على الشعراء الموالين للخلافة الأموية وعلى الأحزاب السياسية التي تقف وتؤيد الخلافة الأموية ولذا ازدهر فن النقائض.

أسباب قيام النقائض:

أ. عوامل عقلية.

ب. عوامل اجتماعية.

وهذا ما أشار إليه الدكتور شوقي ضيف في كتابه "العصر الإسلامي" ثم ذكر غيره أسباباً أخرى، أكثر تفصيلاً منها:

1. تشجيع خلفاء بني أمية لهذا الفن، لصرف الناس عن التفكير في السياسة ومن هم أحق الناس بالخلافة.
2. التكسب المادي، إذ لم يكن جميع شعراء هذا الفن صادقين في تعبيرهم وقصائدهم من مدح وذم وهجاء، بل كان دافعهم الأول هو الكسب المادي.
3. القدرة على الحوار والجدل والمناظرة في الأمور السياسية والعقائدية، والفقه والتشريع، وكان على كلٍّ من المتناظرين أن يقوم بدراسة

موضوع قصيدته من جميع الجوانب السياسية والاجتماعية والفنية، كما عليه أن يدرس أدلة خصمه ويحللها وينقضها، وعليه فقد كثرت المناظرات الشعرية في سوقين أدبيين وهما سوق المربد في البصرة، وسوق الكناسة في الكوفة.

4. إضافة إلى أسباب أخرى منها أسباب خاصة بالشعراء الذين اشتركوا في النقائض، وهم كثيرون، لكن كان على رأسهم جرير والفرزدق والأخطل.

خصائص فن النقائض:

لفن النقائض وخصوصاً تلك التي قامت بين جرير والأخطل خصائص عديدة منها:

1. طول النقيضة/ القصيدة:

اختلطت العصبية القبلية في هذا العصر بالأمور السياسة حيث خاضت النقائض في مدح الخلفاء والولاة فإلى جانب الفخر والهجاء والغزل والمدح والأمور السياسية التي يرضى عنها الخلفاء والولاة ومع تقيد الشعراء بالوقوف على الأطلال ووصف المطية (الناقة) والنسيب/ الغزل في مطلع قصائدهم/ نقائضهم طالت القصيدة.

فهذه قصيدة جرير الرائية تبلغ أكثر من خمسين بيتاً وقد بدأها برثاء زوجته ووصف المطر ثم مدح أم خرزة ويجيء في البيت الرابع والعشرين إلى هجاء الفرزدق فيقول:

لولا الحياء لهاجني (لعادني) استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزاد

ثم يهجو الفرزدق فيقول:

أقـــام حـــرزه يـــا فـــرزدق عتـــيم غـــضب الملـــك علـــيكم القَهّـــارُ

فيرد الفرزدق بقصيدة طويلة يبدؤها بالمقدمة الطلية ثم بارتجال الضغائن ثم بالحكمة ويبدأ بهجاء جرير في البيت الثاني والعشرين فيقول:

نحـــن بـــزوراء المـــدين الفتـــى حـــنين عجـــول يبتغـــي البـــو دائـــم

وبالبيت زوراء المدينة أصبحت بأحفار ملح أو بسبب الكواظم ثم يقول وجرير من قبيلة قيس:

نحـــرك قـــيس في رؤوس لئيمـــة أنوفـــاً وأذانـــاً لئـــام لمـــصالح

2. التأثر بالإسلام:

لقد دخلت المعاني الإسلامية في النقائض فبيئة شعرائها إسلامية وظهر ذلك في الفخر والهجاء وبعد ذلك في نفيضة/ قصيدة الفرزدق التي يهجو بها جرير ويفخر بقومه فيقول:

إن الـــذي سمـــك الـــسما بنـــى لنـــا بيتـــاً دعائمـــه أعـــز وأطـــول

بيتـــاً بنـــاه الملـــك ومـــا بنـــا حكـــم الـــسماء فإنـــه لا ينقـــل

وهذا مأخذ من قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النازعات: آية 27 – 28).

ثم أضاف:

ضـربت عليـك العنكبـوت بنـسجها وقـضى عليـك بـه الكتـاب المنـزل

وهذا ما ورد في القرآن الكريم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (العنكبوت: آية 41).

أما جرير فقد كان أشد تأثراً بالإسلام فقد قال:

إن البعيث وعبد آل مناعس لا يقرآن لسورة الأخيار

وهذا مرده قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة: آية 1)

3. الإفحاش والهجاء:

لم يتورع شعراء النقائض عن الفحش في الهجاء فلجأوا إلى الاقذاع فيه واستعملوا أساليب وألفاظاً وعبارات تناولت الأعراض فانتهكوها والحرمات فأباحوها وبمنتهى التصريح الفاضح لا التلميح إلى درجة لا تقرها لا الأديان السماوية ولا الأخلاق العربية حتى قال جرير " ما هجينا بشيء أشر قط أشد علينا من قول الأخطل ":

ما زال فينا رباط الخيل معلمة وفي كليب رباط الذل والعار

قوم إذ استنبح الأضياف (الضبعان) كلبهم قالوا لأمهلهم لولى على النار:

تضِنُّ بالبول سخاً أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار

فأجابه جرير:

حيوا المقام وحيوا ساكن الدار ما كدت تعرف إلا بعد إنكار

وهجى الفرزدق أم جرير بقوله:

قبح الله فقرة في بطنها منها خرجت وكنت فيها تحمل

فأجابه جرير:

أقبح الإله بني خفاف ونسوة بات الخزير ليس كالأطفال

4. اعتماد السخرية:

وفي نقائض جرير والفرزدق الكثير وفيه:

- سخر جرير من الفرزدق فقال:

وإنـك لـو تعطـي الفـرزدق درهمـاً علـى ديـن نـصرانية لتنـصر

وكذلك:

خـذوا كحـلاً ومجمـرة وعطـراً فلـستم يـا فـرزدق بالرجـال

وقال الفرزدق يهجو والد جرير:

إنـا لنـضرب رأس كـل قبيلـة وأبـوك خلـف أتانـه يتقمـل

وقال أيضاً:

تركنا جريراً وهو في السوق حابس عطيـة هـل يلقـى بـه مـن يبادلـه

فقـالوا لـه رد الحمـار فإنـه أبـوك لئـيم رأسـه وجحافلـه

5. توليد المعاني والصور::

انكب شعراء النقائض على التفنن في توليد المعاني والصور وقد توافر لهم الخيال الخصب لابتكار الصور والمبالغة في المعاني واختراع الوقائع والحوادث وما تضمن ذلك من اللجوء إلى الكذب والبهتان، فهذا جرير يستغل فكره القين والحدادة عند الفرزدق فولد منها المعاني فوصف جرير الفرزدق بأنه قين وابن قين أي حداد وابن حداد والحدادة عند العرب صناعة وعمل يقوم بها العبيد، ثم يضيف:

ألهي أباك عن كل المكارم والغلالي الكتـائن وارتفـاع المرجـل

تصف السيوف وغيركم يعصى بما يـا ابـن القيـون وذاك فعـل الـصيقل

ويضيف:

هـو القـين وابـن القـين لاقـين مثله لقطع المسامي ولجدل الأدهم

6. استخدام أسلوب المقارنة والموازنة:

وقد لجأ إلى هذا الأسلوب شعراء النقائض وخصوصاً جرير والفرزدق والأخطل وذلك للاحتجاج والدقة ف يالتحدي ولتوضيح الأفكار وإظهارها.

7. رصد صفات الخصم:

عمد شعراء النقائض إلى هذا الرصد لينهالوا على خصومهم بالهجاء والشعر المقذع ، ومثال ذلك فشل الفرزدق في ضرب عنق أسير عندما أسره الخليفة سلمان بن عبد الملك فنبا السيف في يده وكان الخليفة قد دس له سيفا لا يقطع، فاستغل جرير هذه الحادثة وقال ساخراً من الفرزدق.

أكلفت قيساً أن نبا سيف غالب وشاعت له إحدوثة في الموسم

بسيف لأبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

8. والنقائض فن دائم مستمر غير منقطع:

ضربت عند الإمام فأرعشت يداك وقالوا محدث غير صارم

قيمة النقائض:

واضح من خلال ما عرضناه سابقاً أن أساس الهجاء في النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية، حيث الحديث عن أيام العرب في الجاهلية، ولكن في العصر الأموي اختلطت العصبيات بالسياسة مما هيأ للنقيضة أن تخوض في مديح الخلفاء والولاة، والشاعر يستلهم الإسلام في موضوعاته ومعانيه. كما يستلهم قدرة العقل العربي على الجدال ونقض الدليل بالدليل.

وأقدر الشعراء في ذلك الوقت كان جرير والفرزدق، والمقصود أنهما درسا تاريخ القبائل العربية في الجاهلية والإسلام، حيث تعدُّ هذه النقائض وثائق تاريخية طريفة، وهي لم تكن هجاءً فحسب، بل كانت دراسة، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التي يدافع عنها، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التي يهجوها.

ويذهب بعض الدارسين إلى أن النقائض تمثل الجانب المضطرب في العصر الأموي، كما ترتب على بقاء العصبية الجاهلية انتشار الإسلام، وازداد أثره في الحياة الجديدة. وهي تصور:

1) الوجه السياسي، فقد صورت النقائض النزاع السياسي، وانقسام الشعراء بين مؤيد ومعارض لهذا الحزب أو ذلك.
2) الوجه الاجتماعي: يدل مجموع الشعر في العصر الأموي على بقاء البداوة غالبة على هذا المجتمع، فهو مملوء بالمفاخر الجاهلية والبدوية كالأنساب وأيام العرب.
3) الوجه اللغوي: فقد حفظ شعراء النقائض اللغة العربية صافية كما كانت في الجاهلية، وقد قيل: لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة العربية بل قيل ثلثاها.
4) الوجه الأدبي: كانت النقائض تقليداً واضحاً للمعلقات من حيث شكل القصيدة وتنوع أغراضها، وطول نفسها، وفي كثير من خصائصها الأخرى.
5) الناحية الفكرية: كانت النقائض تمثل جانباً من الحياة الأموية، لا سيما الجانب السياسي واللغوي والاجتماعي.
6) الغزل والنسيب: فقد ازدهرا في العصر الأموي وكانتا قد أهملتا في صدر الإسلام.

نقائض جرير والفرزدق:

جاءت نقائض جرير والفرزدق متأخرة عن نقائض جرير والأخطل. فنقائض الأخيرين شغلتهما نحو عشرين سنة، بينما نقائض جرير والفرزدق استمرت ما يقارب

خمساً وأربعين سنة، وهذا أتاح لنقائض جرير والفرزدق أن تكون أكثر عدداً، وأكمل فناً، وأتم صنعاً.

ويكاد يتفق الرواة أن خصومة وقعت بين جرير وشاعر آخر يسمى غساناً من أحد بطون يربوع، ودخل بينهما بنو مجاشع، فتفوق عليهم جرير، ذهب بنو مجاشع إلى شاعرهم الكبير، الفرزدق، الذي كان قد فرّغ نفسه لحفظ القرآن الكريم، وصارت عنده نية لترك الشعر، فأظهر شيئاً من التردد، ولكن نسوة من قومه استثرنه للرد على جرير، وما زلن به كذلك حتى شارك في المعركة إلى آخر الشوط.

وتطورت المعركة بينهما في مسرح سوق المربد، وتحت تأثير الجماهير التي تريد قطع الوقت، واللهو والتسلية، والمفاضلة بين عشيرتي الشاعرين، وتطورت مرة ثانية لتصير المفاضلة بين قيس وتميم.

ولما تولى بشر بن مروان على العراق أبعد جريراً عنه، لأنه شاعر خصومه الزبيريين ومن والاهم، وهاج الشعراء لهجائه، وكان للسياسة دور في هذا الأبعاد، وبالمقابل قرّب بشرٌ الفرزدق، واتخذه نديماً له.

وفي عهد الحجاج هدأت المعارك الأدبية ثم ثارت وقويت بعد موته، واستمرت كذلك حتى لفظت أنفاسها.

ومن الحسن أن نفهم أن هذه المعارك لم تكن معارك صارمة، باستمرار، وإنما كان يراد منها ــ في بعض الوقت، اللهو والتسلية، وإذا رجعت إلى إخبار الشاعرين تجدهما ـ في بعض الوقت ـ غير متخاصمين ولا متحاقدين، بل متصادمين متوادّين، والدليل على ما نقول أن جريراً حزن على صاحبه حزناً شديداً حين سبقه إلى الموت، وكان قد رثاه بهذه الأبيات:

فُجِعْنا بحمّال الدِّيات ابن غالبٍ وحامي تميم عِرْضها والمراجِمِ

بكيناك حِدْثان الفراق وإنما بكيناكَ شجواً للأمور العظائم

فلا حَملت بعد ابن ليل مهيرَةٌ ولا شُدَّ انساعُ المطيِّ الرواسم

إذن الصلة بين الشاعرين لم تكن منقطعة باستمرار، ولكن كانت صلة مودة. وقد نستطيع أن نزعم أن الغرض من النقائض كان الفكاهة، وخاصة جرير، فهو في بعض الوقت كان يرمي الفرزدق بأن زوجة النوار تكرهه، وأن ليس فيه ما تعشقه النساء.

والحق أن نقائض الشاعرين لم تكن إلاّ مناظرات أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهي مناظرات احتفظ لنا بها الشعر العربي.

الوحدة الرابعة

الأدب العربي في العصر العباسي

مَكْتَبَةُ لِسَانِ العَرَب

رابط بديل
lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

الوحدة الرابعة
الأدب العرب في العصر العباسي

مدخل إلى الأدب العباسي

بدأ العصر العباسي في التاريخ السياسي سنة 132 هـ بسقوط الدولة الأموية في الشام وقيام الدولة العباسية في العراق/ الكوفة وبنتهي هذا العصر بسقوط بغداد على يد هولاكو التتري سنة 656 هـ (1258م).

والحقيقة أن هذا العصر لم يكن عباسياً منذ أيام الخليفة الموكل حيث سيطر القواد الأتراك على الدولة من جميع جوانبها ولم يكن للخليفة العباسي المنصور على عرش بغداد بعد المتوكل من الأمر شيء وكثرت الدول والدويلات في هذا العصر ومكن بعضها دولاً غير عربية. ولكن الخصائص العباسية بقيت سائدة في الأدب من الشعر والنثر إلى سقوط بغداد.

لقد انتقلت الخلافة سنة 132 هـ/ 749م من الشام إلى العراق ففي الشام كانت الدولة الأموية عربية عصبية وفي العراق حيث بنو العباس الذين أصبحت دولتهم دينية جامعة وبالمقارنة بين المجتمع العباسي تبين لنا:

1. أن البراءة فكانت غالبة على المجتمع الأموي، المثل العليا فقد كانت بدوية جاهلية.
2. ظل الأسلوب الذي استهوى الأمويين في الأدب جاهلياً.
3. سادت الحضارة في المجتمع العباسي وانتشر الدين.
4. من حيث الدولة والحكم فقد كان يتنازعهما تياران التيار العلوي وتساعدهم وتساندهم الفرس وعرب الجنوب عامة والتيار العباسي تساعدهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة.

وبمرور الزمن واحتكاك العرب بغيرهم من الأمم واقتباسهم كثير من أوجه الحضارة المادية ومن أساليب التفكير، كما أن الموالي المسلمين من غير العرب قد احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم ومن عاداتهم وبدءوا يتساءلون عن كثير من الإسلام من فروض وأحكام وعقائد، وعهدت حركة الاعتزال في أواسط العصر الأموي واتسعت وترعرعت في العصر العباسي وهي حركة تقوم على أن الفعل وحده هو الحكم في جميع الأمور حتى في العقائد.

وتبدلت الحياة البيئية في المأكل والملبس وآداب السلوك وذلك بالزواج من غير العربيات من الفارسيات والروميات والتركيات وتعصب الجديد أبناء وبنات هذا الزواج للأخوال ورأى أن العرب ليسوا أفضل من سواهم في كل شيء وهذه التسوية بين العرب وغيرهم هي مسماها أهل المحبة العربية (الشعوبية).

ولقد أثرت في البيئة العباسية والحياة العباسية طبقة الجواري التي عني بها المتخصصون معلموهن أصناف العلوم كالفقه والكلام وأنواع من الفنون كالغناء والرقص والشعر إلا أن كثرة الجواري في بيوت الخلفاء والأفراد وفي مراتع اللهو كان أيضاً مدعاة إلى الفساد الاجتماعي الذي تألمت من البيئية العباسية، كما أن تسوء طبقة الغلمان والخصبان زاد الطين بلة، والفساد الاجتماعي.

وكثر التعرّب (التسمية بالعرب) بين الموالي ملفقوا لأنفسهم أنساباً عربية فأبو تمام الرومي أصبح يعرب بن قحطان.

والعرب أكثرهم في الأصل بدو رحل يتمسكون بصلة النسب أو ما هو بمعنى النسب من الولاء والحلف وقد دعاهم نزولهم في الحضر إلى الترف واللهو وإلى ضياع كثير من محامدهم الأولى من الشجاعة والنجدة والكرم وإلى انتشار مساوئ المدينة من شراب وانغماس في اللذات وتناسي الوفاء ومسايرة أهل السلطان على الحق وعلى الباطل هذا إلى جانب اتساع العمران بسكنى الحضر وازدهار العلوم والفنون وكثرة

الأسفار والرحلات التي سهلت معرفة بعض الأمم وما عندها من حضارة وثقافة.

وفي شكل الدولة والحكومة لم يستنكف العرب عن الاستعانة بالأنظمة القديمة ورجال الدولة القديمة ومنهم الفرس الذين ساعدوا العباسيين على نيل الخلافة وقد حاء وقت أصبحت فيه الدولة العباسية فارسية، كل شيء وأصبح الفرس والخراسانيون يسمّون (أبناء الدولة) الأمر الذي أثار نقمة العرب وبالأخص الشيعة منهم على العباسيين.

وتوسعت اقتصاديات البلاد في العصر العباسي توسعاً كبيراً مما زاد في الترف واللهو وتنوع الفنون وأصبحت بغداد لا نظير لها في ذلك الوقت في عمرانها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وكثرة دورها ومزارعها إلى آخر ما هناك من دور بالترف والرخاء، وتطورت التجارة وتوسعت ووردت إليها البضائع إلى بغداد وثمرها من شتى أطراف المعمورة كالحرير من الصين والعطور والمعادن من الهند.

ونظراً لأن الدولة تضم شعوباً مختلفي الأجناس والديانات فقد أطلقت الحرية الدينية فهناك فرق إسلامية متعددة وهناك النصارى من مختلف النزعات وهناك اليهود والصهاينة... إلخ.

وانتعشت الثقافة وانتشرت وترعرعت وكانت من أقوى العوامل في النهضة العباسية وتبارى الخلفاء العباسيون وتشجيع الحركة العلمية وبالغوا في إكرام الأدباء والعلماء وولوهم أحياناً المراكز العالية وكان للثقافة أثر كبير في الأدب ؟؟ الثلاثة وهي:

الثقافة العالية الخاصة ويعتمد على القرآن الكريم وما يتصل به من علوم الدين، وعلى الشعر وما يتصل به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرهما.

ثم الثقافة اليونانية والثقافة الشرقية.

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر وقد اتسعت وعظمت حركة النقل والترجمة والنسخ فأتت بجميع العلوم القديمة التي كانت معروفة في ذلك العصر إلى الدولة العباسية.

ولقد كان لهذه البيئة العباسية الأثر الكبير في الشعر حين تميز بما يلي:

من حيث الأغراض الشعرية:

ظهر العديد من الأغراض الشعرية الجديدة إلى جانب الأغراض القديمة المعروفة ومن هذه الأغراض الجديدة:

- شعر التغزل بالغلمان/ شعر المذكر ورائده الشاعر أبو نواس.
- شعر الشعوبية وهو تمجيد ومدح العِرْق/ الجنس الفارسي والإشادة بالجنس الفارسي وبحضارته وتفصيلهم على الحضارة العربية.
- شعر الزندقة وهو انكار ما جاء في الإسلام من بعث أو حساب أو غير ذلك من أمور الدين.
- شعر الزهد ورائده الشاعر أبو العتاهية.

من حيث الأسلوب:

كثرت فيه الصناعة والاهتمام بالمحسنات البديعية سماعاً مما عاد عليه بالضعف

من حيث الشكل العام للقصيدة:

انقسم الشعراء إلى فئتين **الفئة الأولى** رأى المحافظة على النمط القديم وتراه واجباً قومياً تجاه الشعوبيين الذين يهاجمون العرب والعروبة وحضارتهم ويحطون من قدرهم ومكانتهم ويفضلون الفرس وغيرهم عليهم.

الفئة الثانية وترى التجديد الخروج على نمط القصيدة العربية كالوقوف على

الأطلال والمقدمة الغزلية ونرى ذلك بوضوح في شعر بشار بن برد وأبي نواس.

من حيث اللفظ والمعنى:

دخول ألفاظ ومعاني غير عربية وبخاصة وهي الألفاظ والمعاني الفارسية وذلك بعد أن ظهر في المجتمع العباسي الكثير من العادات والتقاليد الفارسية عن طريق الموالي والمولدين والشعراء الذي ينحدرون من أصل فارسي ووقف في وجوه هؤلاء شعراء من العرب الأقحاح الذين يعتزون ويفتخرون بعروبتهم وبأهمية لغتهم وحضارتهم العربية أمثال أبي تمام والمتنبي.

الشعر في العصر العباسي:

امتدّ هذا العصر من 132 هـ – 606 هـ (1258 م) إذ سقطت بغداد من هولاكو، ويشمل هذا العصر أربعة عهود:

العهد الأول: وهو عهد الفتوة.

العهد الثاني: وهو عهد الأتراك.

العهد الثالث: وهو عهد بني بويه

العهد الرابع والأخير: وهو عهد السلجوقيين.

وقد تميز الشعر في هذا العصر بالصفات التالية:

1) من حيث اللفظ والمعنى: دخول كلمات فارسية وظهور نغمة الشعوبية التي تدعو إلى احتقار العرب وتمجيد العجم، وقد انبرى لهذه الظاهرة الشعوبية مَن دافع عن العرب ومنهم المتنبي وأبو تمام والبحتري وغيرهم، كما ظهرت ألفاظ معربة ومولدة وزيادة على ذلك فقد تم التوسع في الاشتقاق وتم هجر كثير من الألفاظ الجاهلية، هذا إلى جانب ظهور معاني جديدة في الشعر مستحدثة في الفلسفة والمنطق والحكم.

2) من حيث الأغراض الشعرية:

- أغراض تقليدية كما هو الحال فيما سبق هذا العصر من الأدب كالفخر والحماسة والمدح والغزل.
- أغراض أخرى جدت فيها تطور وتجديد مثل:

❖ الخمريات/ الشاعر أبو نواس.

❖ التغزل بالغلمان والغزل الإباحي/ الشاعر أبو نواس.

❖ الزهديات/ الشاعر أبو العتاهية.

❖ الروميات/ الشعراء المتنبي وأبو تمام والبحتري.

هذا إلى جانب غرضين آخرين ظهرا بشكل واضح وصريح في شعر الشعوبيين وهما المفاخرة بتاريخهم وأمجادهم والانتقاص من شعر العرب أما الغرض الثاني فكان شعر الزندقة.

❖ الروضيات وهو وصف الرياض وما فيها من جمال وأزهار/ أبو بكر الصنوبري.

❖ قضايا الإنسان والمجتمع/ أبو العلاء المعري في لزومياته.

❖ هذا إلى جانب شعر الفكاهة واللهو.

3) من حيث أسلوب الشعر:

ظهرت صناعة الشعر والتكلف حيث كثرت المحسنات البديعية اللفظية مما عاد على الشعر بالضعف وعدم الوضوح.

4) من حيث الشكل العام للقصيدة:

- دعوة إلى الخروج عن اللفظ المعروف/ الأسلوب أو النمط/ النظام المتبع في القصيدة وهو: المقدمة، الطلل، الراحلة.

- دعوة إلى المحافظة على النمط المعروف.

ومن نماذج شعر هذا العصر قصيدة: أقول وقد ناحت بقربي حمامة، للشاعر أبي فراس الحمداني.

وقصيدة في وصف الربيع:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما

للشاعر البحتري

وقصيدة أبي تمام البائية ومطلقها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدِّه الحد بين الجد واللعب

أبو فراس الحمداني

نشأ في العصر العباسي الثالث عصر الدول والإمارات ومنها دولة بني حمدان في إقليم الشام وهو يتحدّرُ من أصول عربية عريقة كانت إحدى ينابيع شعره في الفخر و الحماسة مع كوكبه من الشعراء، شعراء هذا اللون من الشعر وهو البحتري وأبو تمام والشريف الرضي وأبو العلاء المعري وكان يأنف أن يُعدَّ من الشعراء المادحين المتكسبين وكان أكثر شغفهُ بصفة الفارس المغوار.

قتل أبوه وهو في الثالثة من عمره واحتضنتْهُ أمه في كنف ابن عمّه سيف الدولة الذي خَصّه بالرعاية والعطف وعني تخريجه فارساً وشاعراً.

وقد برز في بلاط سيف الدولة محارباً شجاعاً يصاحب ابن عمه سيف الدولة في معاركه ضد الروم وفي غزواته ضد خصومه في الداخل من القبائل الثائرة والمعارضه، ولقد نسجت حول خوارقه في الاستبسال القصص والروايات واعتبره البعض نظير عنترة بن شداد.

ولوفائه وتضحياته في الدفاع والبطولة ولاَّ سيف الدولة مقاطعة منبج وحمله الراية فسار على رأس الكتائب يذود عن حدود الإمارة الحمدانية ويتصدى للقبائل ؟؟

ولعل أبرز الأحداث في سيرة هذا الشاعر الفارس وقوعه أسيراً في يد الروم وقيل بأنه أُسِرَ مرة واحدة ونقل إلى القسطنطينية وقيل بل أسر مرتين وطال أسرُه وتباطأ سيف الدولة في افتدائه، وهذا الأسر وهذه المعاناة وهذا التباطؤ من سيف الدولة، في افتدائه كله أذكى شاعريته فيه فنظم وهو مقيد سجين أروع قصائده وأجملها وهي الروميات والتي يقول في إحدى مطالعها:

لـــــولا العجـــــوز بمنـــــبج مـــــا خِفْـــــتُ أســـــباب المنيـــــة

ولكـــان لـــي عمـــا ســـالت مـــن الفـــدى نفـــس أبيـــه
يـــا أمتـــا لا تيأســـي للّه ألطـــاف خفيـــة
أوصـــيك بالـــصبر الحميـــل فإنـــه خـــير الوصـــية

ثم فك أسره ومات سيف الدولة بعد ذلك بعام وخَلَفَه ابنه سعد الدولة وثار عليه أبو فراس طامعاً بمدينة حمص وما هو لها ولكنه قتل في معركة غير متكافئة وهو في سن الأربعين تقريباً.

قامت شهرته في الشعر على الأخوانيات والفخر والغزل وأما قصائده الروميات فقد بلغت درجة عالية من الرفعة حيث عكست شخصيته بكل ما فيها من البطولة والفروسية والإباء والحفاظ على سمو الذات وكبريائها.

وقد شبهه الأقدمون باثنين من الشعراء الأمراء امرئ القيس الكندي وابن المعتز. وفي غزله يحمل الأنفه والتعالي اللذين هما من صفات الأبطال والفرسان فقد غلب عليه الانتصار في الحب للكرامة وليس للعاطفة.

ومع إجادته في الغزل فهو مقل فيه:

وتعتبر قصيدته التي مطلعها:

أراك عـصى الـدمع شـيمتك الـصبر أمـا للـهوى نهـي عليـك ولا أمـر

قصيدة جامعة لفنه الشعري وهي أطول قصائده ويتعانق في هذه القصيدة الهوى والمجد هوى المحب ومجد الفارس وجاءت حافلة بالصور والأخيلة الدقيقة.

وأهم ما في ديوان أبي فراس (رومياته) وهي تلك القصائد الوجدانية التي أملاها واقع حياته في الأسر وما في هذا الواقع من ثوران العواطف وحدة الانفعالات.

وقد نال إعجاب آسريه بتحمله عذاب الأسر وأطرافه مشدودة بالسلاسل والأغلال وظل مع هذا بلباس الحرب.

والروميات نفحات وجدان تطاولت على المأساة وجعلت من أنات الأسر أناشيد بطولة وقصائد فخر صارمة، وهي مزيج مثير من الفروسية والحب والهجاء والفخر والحماسة والحنين وشعره علاوة على ما تضمنه من مديح فخري وغزل فهو غني بالخواطر والحكم والأمثال ومواقف الشكوى والعتاب والوصف والرثاء، وشعره له القيمة التاريخية إلى جانب القيمة الفنية.

أَيَا جَارَتَا

سمع أبو فراس، وهو في أسره، حمامة تنوح على شجرة فقال يخاطبها:

أقُـولُ وقَـدْ نَاحَـتْ بِقُرْبِـي حمامَـةٌ: أيَـا جَارَتَـا، هَـلْ تَـشعُرِينَ بِحَـالي ؟[1]

مَعـاذَ الهَـوَى! مـا ذُقـتِ طارِقـةَ النّـوَى وَلا خَطَـرَتْ مِنـكِ الهُمُـومُ ببَـالِ[2]

أتَحْمِـلُ مَحْـزُونَ الفُـؤادِ قَـوَادِمٌ عَلـى غُـصُنٍ نَـائِي المَـسَافَةِ عَـالِ؟[3]

أَيَـا جَارَتَـا، مـا أنْـصَفَ الـدّهْرُ بَينَنَـا تَعَالَيْـاً أُقاسِـمْكِ الهُمُـومَ، تَعَـالِي![4]

تَعَـالَيْ تَـرَيْ رُوحـاً لَـدَيّ ضَـعِيفَةً، تَـرَدّدُ في جِـسْمٍ يُعَـذَّبُ بَـالِ

أيَـضْحَكُ مأسُـورٌ، وَتَبكـي طَلِيقَـةٌ، وَيَسْكُتُ مَحزُونٌ، وَيَندبُ سالِ ؟[5]

لَقـد كنـتُ أوْلى مِنـكِ بالـدّمعِ مُقلَـةً، وَلَكِـنّ دَمعـي في الحَـوَادِثِ غَـالِ ![6]

أيا جارتا:

وقع الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني في أيدي الروم أسيراً وطال أسره وتباطأ ابن عمه سيف الدولة في افتدائه وتحريره من الأسر، وسمع في أسره هذا حمامةً خارج سجنه تنوح على شجرة فجاءت قصيدته أيا جارتا مخاطباً الحمامة.

بدأ في **البيت الأول** توجيه شعره للحمامة فوصفها بالجارة وسألها هل تشعرين

---

(1) ناحت: بكت بحزن. أيا: من أدوات النداء للبعيد.

(2) معاذك ملاذ، ملجأ ـ يقول: أعيذ الهوى أي أحميه وأعصمه منك ـ النوى: البعد.

(3) القوادم: جمع قادمة، كل ريشة كبيرة وطويلة في جناح الطائر ـ نائي: بعيد.

(4) أقاسمك: أشاطرك.

(5) الطليقة: الحرة ـ السالي: من لا همّ له. المأسور: يشير إلى نفسه.

(6) أولى بالدمع: أحق ـ الدمع الغالي: غير الرخيص ـ يقول إنه أحق بالبكاء من تلك الحمامة. المقلة: العين.

بحالي وما أعانيه في الأسر بعيداً عن الأهل والأحبة والوطن والوالدة.

وفي **البيت الثاني:** أعيدْ الهوى أي أحميه وأعصمه منك فأنت لم تذوقي طعم البعد عن الأهل والأم والأحبة والوطن كما أنه لا هموم تخطر على بالك فتنغص حياتك.

وفي **البيت الثالث:** يتساءل الشاعر هل الريش الطويل والكبير يحمل محزون الفؤاد أي ذا القلب الحزين فوق غصن بعيد المسافة عال.

وفي **البيت الرابع:** يقول يا جارتي لم يكن الدهر عادلاً معنا (معي ومعك) فتعالي إليّ نتقاسم الهموم الكثيرة التي أعاني منها.

ويستطرد في **البيت الخامس** فيقول: تعالي يا جارتي لتري روحي الضعيفة التي تتردد في جسم معذب بلي من الهموم.

ثم يتساءل متعجباً:

هل يضحك المأسور وهو مأسور أي يضحك وهو الأسير وتبكي حرة طليقة غير أسيرة أي الحمامة نفسها التي يخاطبها وهي من فوق غصن عالٍ، وهل يسكت هو وهو الحين لكونه أسيراً بعيداً عن أهله وأمه ووطنه وهو يقبع في السجن في أيدي أعدائه بينما من لا هم لديه يبكي ويعني بها الحمامة.

ويختم مخاطبته للحمامة بقوله:

أيتها الحمامة أنا وأنا في هذه الحالة من الأسر أحق منك بالبكاء ولكن دمعي غير رخيص مهما تعددت الحوادث والهموم.

القصيدة من الشعر الوجداني المؤثر وألفاظها عذبة متناسقة.

البحتري

(206 – 284 هـ)، (821 – 897 م)

حياته :

ولد البحتري بمنبج إلى الشمال الشرقي من حلب وهو أبو عبادة الوليد بن عبيد طائي الأب شيباني الأم غلب عليه لقب البحتري نسبة إلى عشيرته الطائية بحتر. نشأ بين قومه الطائيين واكتسب فصاحتهم واستفاد من تلمذته لأبي تمام حيث أخذ عنه طريقه في البديع ثم انتقل إلى العراق وكان العراق في ذلك الوقت ميداناً للقلق والاضطراب وكانت الخلافة العباسية ضعيفة حيث استولى الأتراك على زمام الأمور.

اتصل بالخليفة العباسي المتوكل فحظي لديه وأصبح عنده شاعر القصر وأغدق عليه الأموال الوافرة، وبقي في العاصمة بعد مقتل الخليفة المتوكل وقد ذكره الفتح بن خاقان يتقلب مع كل ذي سلطان مستجدياً إلى أن عاد أخيراً إلى منبخ حيث توفي فيها.

له ديوان شعر كبير طبع أكثر من مرة في القسطنطينية ومصر وبيروت وقد شرح قديماً أبو العلاء المعري هذا الديوان.

البحتري في شعره بدوي النزعة وقد أكثر من تقليد المعاني القديمة وهو في غزله مبتذل المعاني سطحيّ العاطفة فيما عدا بعض مقطوعات قالها في علوة الحلبية ومع هذا فهذا الغزل عامر بالرقة والحلاوة مستوفي الجمال الفني، وسمي البحتري بشاعر الطيف لكثرة ما ذكر خيال الطيف.

في فخره يفتخر بقومه وبنفسه وفي حكمة تظهر فيها المعاني الشائعة القريبة المنال ووليدة لاختيار البسِط.

وهو صاحب مخيلة قوية وكان إذا صور الأشياء أبرز لها صوراً دقيقة الفن ملونة تحس فيها الحركة والحياة في شعر حلو النغم رائح الديباجة. وقد ضرب المثل بديباجته مثل ديباجة بحترية ولا غرابة في ذلك فقد كان دقيق الإحساس، باللفظة الشريفة واختيار الألفاظ الموسيقية التي تعبر بذاتها عن المعنى وتصوره تصوراً حسياً، وقد كان الشاعر البحتري بفنه الجميل يؤلف بين اللفظ والمعنى بتركيب جملة بحيث تكون منسجمة موافقاً بعضها لبعض ولذا سمي ابن رشيق القيرواني البحتري (بشيخ الصناعة الشعرية)، وقد اتخذ الأقدمون شعر البحتري مثالاً على الطريقة الشامية وهي طريقة قائمة على موسيقا الألفاظ وحسن صياغتها والعناية باختيار التعبير والصورة.

ومع تخرجه على أبي تمام واحتكاكه بابن الرومي ورؤيته مذهبه الشعري الجديد إلا أنه بقي يسير على طريق الأقدمين وترسم أساليبهم التقليدية وهذا ما جعل الآمدي يقول (البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ما فارق عمود الشعر المعروف)

ودخول البحتري إلى الحضر أفاده صوراً حضرية إلى جانب صوره البدوية فقد أبدع في وصف بركة المتوكل وقصر ابن المعتز وديوان كسرى والربيع.

وهو وإن تخرج على أبي تمام فقد كان بكرة مذهبه في استخدام المنطق والأدلة العقلية في شعره وهو القائل (إن المنطق هو الأتيان بحقيقة المعنى والشعر قائم على التمويه والخيال، فكيف يجتمعان وليس الشعر إلا لمحات تكفي الإشارة فيها وليس هو بثرثرة وتفصيل).

وصف الربيع/ للشاعر البحتري

من قصيدة يمدح بها الهيثم الغنوي، ويصف الربيع مزيناً للممدوح عقد مجلس لهو وشراب.

أتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتالُ ضاحِكاً ... مِنَ الحُسْنِ، حتى كادَ أنْ يتكَلَّما

وقد نَبَّه النَّوروزُ، في غَلَسِ الدُّجى، ... أوائِلَ وردٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّما [1]

يُفَتِّقُها بَرْدُ النَّدى، فكأنَّهُ ... يَبُثُّ حَدِيثاً، كان، قبلُ، مُكَتَّما [2]

ومن شَجَرٍ، ردَّ الربيعُ لِباسَهُ ... عليهِ، كما نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنما [3]

أحل، فأبدى للعيونِ بشاشة، ... وكان قذى للعينِ، إذ كان مُحْرِما [4]

ورقَّ نسيمُ الرَوض، حتى حَسِبْتُهُ ... يَجِيء بأنفاسِ الأحِبَّةِ نُعَّما

فما يَحبِسُ الرَّاحَ التي أنتَ خِلُّها، ... وما يَمْنَعُ الأوتارَ أن تترَنَّما ؟

وما زلت شمساً للندامى إذا انتشوا ... وراحوا بدوراً يستحثون أنجما

تكرمت من قبل الكؤوس عليهم ... فما اسطَعْن أن يُحدثن فيك تكرُّما

---

(1) النوروز، ويقال له النيروز: عبد فارسي الأصل، يقع في الشرق في أول آذار، فيوافق ظهور نور الربيع. الغلس: ظلمة آخر الليل.

(2) يبث الحديث: يبوح به ويفشيه.

(3) منمناً: مزخرفاً.

(4) أحل: خرج من إحرامه. المحرم: من دخل في الحرم، ولبس المحرم، ذلك بأن المسلمين إذا جاؤوا مكة وأرادوا أن يدخلوا الحرم خلعوا ما عليهم من الثياب المصبغة والمخيطة وألقوا على أجسامهم ثياب الإحرام غير مخيطة ولا مصبغة. فالشاعر يقول: إن الشجر كان محرماً في الشتاء أي عارياً من ثيابه المصبغة، فلما جاء الربيع خرج من حرمه، ولبس أوراقه وأزهاره الملونة، فأبدى بشاشة للعيون بعد أن كان قذى لها.

شرح قصيدة الربيع:

من البيت الأول حتى البيت السادس يصف الشاعر قدوم الربيع، وما أحدثه في الشجر والورد من تفتح ونمو وإشراق فيخاطب الممدوح ويقول:

قدم عليك فصل الربيع بتبختر في مشيته مبتسماً فصادفه بالحب وكأنه يوشك أن يترجم فرحة وسعادته بالكلام فهو كالأمير الضاحك يجر أذياله حسناً.

وقد أيقظ عيد الربيع/ النيروز، ظلمة آخر الليل بالورود التي كانت.

قبلة في سبات حيث فتحها وأيقظها برد الندى البارد وكأنه يبوح بحديث كان من قبل سراً من الأسرار غير ظاهر

ثم جاء الشجر بعد الورد فقال الشاعر:

هذا الربيع أورقت الأشجار فيه فكأنّه رد عليها لباسها وكأنه الوشي المزخرف أي المنقوش بالألوان.

ولما جاء الربيع خرج الشجر من أطرافه في الشتاء وكان كالحجاج المحرمين اللابسين الملابس البيضاء غير المخيطة، ولبس أوراقه وأزهاره الملونة فأبدى بشاشة للعيون بعد أن كان قذىً لها.

وفي البيت السادس يقول: وجاء نسيم الرياض والبساتين رفيقاً ناعماً موسيقياً لطيفاً كأنه أنفاس الأحبة الناعمة.

ثم ينتقل الشاعر إلى مطلبه بعقد مجلس شرب ولهو فيقول لممدوحه:

لا شيء يحرِمُك من الراح/الخمر التي أنت صاحبها وصديقها ولا شيء يمنع الأوتار من أن تتحرك وترسل الأنغام.

ويخاطب الممدوح ويقول: وما زلْتَ شمساً تنادم البدور (وهم الصحب في الشرب) وقد سرحت بهم النشوة وأصبحوا بدوراً يستحثون أنجُماً.

ويختم الوصف ويقول: لكن فضلك سابق للكؤوس، والشراب فلم يزدك الشراب عطاءً وتفضلاً

أبو تمام (؟ ـ 231 هـ)

هو حبيب بن جاسم بن أوس الطائي. ولد بقرية جاسم قرب دمشق واختلف في سنة ولادته فمنهم من قال أنه ولد 172 هـ أو في 182 هـ أو سنة 192 أما هو فكان يردد أنه ولد عام 190 هـ وتوفي عام 231 هـ.

وكما اختلف الرواة في سن ولادته فقد اختلفوا في نشأته الأولى فمنهم من جعلها في مصر ومنهم من جعلها في دمشق، وقيل أنه عمل سقاءً في المساجد أو عمل عند حائك حيث أتقن صنع الثياب. ومن المساجد نهل ثقافته الأولى في اللغة والفلسفة والفقه ووصل إلى ذروة الثقافة التي عرفها عصره وقد امتزجت ثقافته هذه امتزاجاً عميقاً في شعره.

تكسب أبو تمام بشعره فنظم أجمل شعر ورثاء في محمد بن حميد الطوسي الذي قتل في موقعة مع بابك الحزمي، وقال في المدح فمدح قاضي نصبيين ومالك بن طوق التغلبي والي الجزيرة وامتدح المأمون في انتصاراته على الروم وقائده مزيدين يزيد الشيباني والي ارمينيا الذي انتصر على ثيوفل إمبراطور بيزنطية والقائد الخياط وتوالت مدائحه في القادة ورجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة المعتصم وحبسه الثلج في همدان فألف كتابه الحماسة. وقد عيّنه الحسن بن وهب على بريد الموصل.

أبو تمام شاعر يؤمن، بالبطولة والفضائل الإنسانية، ولقد أنفق نحو ثمانين في المئة من شعره الجيد في المدح وتعظيم الفضائل الإنسانية.

كان أبو تمام شاعراً على المذهب الشامي جزل الألفاظ متين التراكيب يتكلف الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية وهو مولع بالإعراب في تقصي أوجه المعاني وفي التشابيه والاستعارات، فملأ شعره بالإشارات التاريخية والفلسفية

والنحوية، ومعانيه المخترعة كثيرة وفنونه الشعرية الرثاء والمديح وله الحكم الكثيرة في ثنايا قصائده وله وصف وعتاب وهجاء ولكنها لا تداني شعره في الرثاء ولا في المديح.

ومن مؤلفاته إلى جانب كتاب الحماسة كتاب الوحشيات (الحماسة الصغرى) وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء وكتاب الاختبار بين شعر القبائل وكتاب الفحول وفيه مختارات من أجود قصائد شعراء الجاهلية والإسلام وكتاب نقائض جرير والأخطل حيث ذكر فيه عشرين نقيضة للشاعرين جرير والأخطل ومنها نقيضه للفرزدق.

بائيته في مدح المعتصم – أبو تمام

وقال يمدح المعتصم بالله أبا اسحق محمد بن هارون الرشيد ويذكر حريق عمورية وفتحها:

كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية، وراسلته الروم بأنا نجد في كتبنا أنه لا تفتح مدينتنا إلا في وقت إدراك التين والعنب، وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام بها البرد والثلج، فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها فأبطل ما قالوا:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ [1]

بيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ في ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ [2]

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً ... بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ [3]

أَيْنَ الرِّوايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومِنْ كَذِبِ [4]

---

(1) أنباء: منصوبة على التميز ـ الحد الأول: للسيف والثاني: الفاصل بين الشيئين.
يشير إلى ما كان من أمر المنجمين ويقول أن كلام السيف أصدق من الكتب لأنه يقوم على الفعل وليس على الافتراض والجدل واللَّعب بالألفاظ والأفكار.

(2) الصحيفة: الكتاب ـ الصفائح: جمع الصَّفيحة وهي الجديدة العريضة وتقال أيضاً للسيف العريض
يقول مكرراً المعنى إن السلاح هو الذي يؤدّي إلى اليقين وليست الكتب. وقد توسل لفظة متن لأنها جارية في الدلالة على نصوص الكتاب وفي البيت جناس القلب الذي يغوي به الشاعر وبسواه إغواء خاصاً.

(3) الخميس: الجيش ـ السبعة الشهب: الكواكب.
يقول إن المعرفة اليقينية هي التي تؤديها الرماح عندما تلتمع في القتال، فتبدو كالشهب وليس في الكواكب التي يستنطقها المنجمون: وقيل إنها زُحَل والمشتري والمريخ وعطارد والقمر.

(4) الزخرف: هنا الكلام الموشى المائل عن الصدق.
يهزأ بالمنجمين الذين تنبأوا بالهزيمة ويقول إن كلامهم لا يعدو الكذب المنمق.

تَخَرُّصـــــاً وأَحَـــــديثاً مُلَفَّقَـــــةً لَيْـــسَتْ بِنَبْـــعٍ إِذَا عُـــدَّتْ ولا غَـــرَبِ[1]

عَجَائِبـــاً زَعَمُـــوا الأَيَّـــامَ مُجْفَلَـــةً عَـــنْهُنَّ فِي صَـــفَرِ الأَصْـــفَارِ أَوْ رَجَـــبِ[2]

وخَوَّفُـوا النـاسَ مِـنْ دَهْيَـاءَ مُظْلِمَـةٍ إِذَا بَـدَا الكَوْكَـبُ الغَرْبِـيُّ ذُو الـذَّنَبِ[3]

وَصَـــيَّروا الأَبْـــرجَ العُلْيَـــا مُرَتِّبَـــةً مَـــا كَـــانَ مُنْقَلِبـــاً أَوْ غيْـــرَ مُنْقَلِـــبِ[4]

يقـضون بـالأمر عنهـا وهـي غافلـة مـــا دار فِي فلـــك منهـــا وفِي قُطُـــبِ[5]

---

(1) التخرص: افتراء القول ـ الملفقة: المجموعة دون لحمة أو منطق ـ النبع: شجر صلب تتخذ منه الأقواس والغرب: نبت خائر ينمو على الأنهار.

يقول إن كلامهم لا يعدو الأكاذيب المجتمعة على غير لحمة أو منطق جمعوها كذباً، وهي لا تستقيم ولا تتصف بالقوة ولا حتى بالهزال، فكأنها لا قيمة لها كاللاشيء.

(2) يقول إنهم تنبأوا بدواهي لم تعهد من قبل، تنزل فنبث الذعر حتى أن الأيام نفسها تجفل منها، فكيف بالناس! كما أنهم عينوا زمنها إذ جعلوه في شهر صفر أو رجب، وقد أضاف لفظة (صفر) إلى جمعها ليوحي بعظم الهول الذي كان هذا الشهر مزمعاً أن يتفرَّد به.

(3) الدهياء: الداهية والشدة – المظلمة: هنا التي لا سبيل إلى الخلاص منها.

يقول إنهم أنذروا الناس بكل خطب فادح عندما يظهر الكوكب المذنب، وهو ما يدأب عليه المنجمون.

(4) الوجه أن يروى (مرتبة) بكسر التاء، ويكون قوله: (ما كان منقلباً) في موضع بدل من مرتبة أي صيروا التدبير للنجوم، فكأنها هي التي تتصرف بمصائر القوم. ويعني بـ (الأبراج) بروج السماء التي أولها الحمل وآخرها الحوت. والمنجمون يزعمون أنها على ثلاثة أقسام، أربعة منقلبة، وهي الثور والأسد والعقرب والدلو، وأربعة ذوات جسدين، وهي: الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت.

(5) الفلك: هنا مدار النجوم الذي يضمها – القطب: هو ما ثبت في دورانه على شيء.

يقول: لو كان لها قبل بالمعرفة، لأدركت الهزيمة المنكرة التي كانت مزمعة أن تحل بجماعة الروم، أصحاب الصليب والوثنيين. وفي هذا البيت مدح بالجهاد الديني.

لـو بينـت قـط أمـراً قبـل موقعـه ... لم تُخْـفِ مـا حـل بالأوثـان والـصلب [1]

فَـتْحُ الفُتـوحِ تَعَـالَى أَنْ يُحـيطَ بِـهِ ... نَظْـمٌ مِـن الـشِّعْرِ أَوْ نَثْـرٌ مِـنَ الخُطَـبِ [2]

فَـتْحٌ تَفَـتَّحُ أَبْـوَابُ الـسَّمَاءِ لَـهُ ... وتَبْـرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَـا القُـشُبِ [3]

يَـا يَـوْمَ وَقْعَـةِ عَمُّوريَّـةَ انـصَرَفَتْ ... مِنْـكَ المُنَـى حُفَّـلاً مَعْـسُولَةَ الحَلَـبِ [4]

أبقيْـتَ جَـدَّ بَنِـي الإسـلامِ فِي صـعَدٍ ... والمُـشرِكينَ ودارَ الـشِّرْكِ فِي صَـبَبِ [5]

أُمٌّ لَهُـمْ لَـوْ رَجَـوْا أَن تُفْتَـدى جَعَلُـوا ... فِـدَاءَهَا كُـلَّ أُمٍّ مِـنْهُمُ وَأَبِ [6]

وَبَـرْزَةِ الوَجْـهِ قَـدْ أَعْيَـتْ رِيَاضَـتُهَا ... كِسْرَى وصدَّتْ صُدُوداً عَنْ أَبِي كَرِبِ [7]

---

(1) يقول: لو كان لها قبل بالمعرفة، لأدركت الهزيمة المنكرة التي كانت مزمعة أن تحل بجماعة الروم، أصحاب الصليب والوثنيين. وفي هذا البيت مدح بالجهاد الديني.

(2) يقول إنه فتح لا مثيل له يعرف من قبل. ولا قبل للشعر أن يفيه حقه من الوصف. فهو أقصى من حدود التصور.

(3) يقول أن الله ذاته طرب لهذا النصر لما انطوى عليه من مجد للإسلام، كما أن أبناء الأرض ينشؤون به أجمل الزين والاحتفالات. .

(4) الحُفَّل: جمع الحافل وهي الناقة التي امتلأ ضرعها – الحلب: ما حلب واستدر من اللبن.
يتغذى بذلك النصر، ويقول إن الأماني كلها تحققت وملأت الأنفس سعادة.

(5) الجد: الحظ ـ الصعد: العلى ـ الصبب: الانحدار.
يقول إن حظ الدين قد ارتفع به، فيما انحدر حظ الملحدين وأهينوا.

(6) الأم: أصل الشيء ومعدنه.
يقول: هذه البلدة أمهم، تجمعهم وتضمهم كما تضم الأم ولدها، فلو استطاعوا لافتدوا خرابها بكل أم لهم ولدتهم وأب.

(7) البرزة:المرأة السافرة التي لا تتستر عن الرجال – رياضتها: هنا ترويضها وإذلالها ... أبو كرب: هو أحد الملوك التبابعة الذين تعرضوا لها.
يقرن تلك القلعة بالمرأة التي لا تتستر للرجال، ويقول إن أعاظم الفاتحين حاولوا اقتحامها فأعينهم وتعصت عليهم.

بِكْـرٌ فَمـا افْتَرَعَتْهَـا كَـفٌ حَادِثَـةٍ وَلا تَرَقَّـــتْ إِلَيْهَـــا هِمَّـــةُ النُـــوَبِ[1]

(1) اقترع: افتضَّ – النوب: جمع النائبة: المصيبة.

يقول إنه لم تلم بها الأهوال والحروب قبلاً، فكأنها عذراء لم تمس بكارتها يد أي من الفاتحين.

بائية أبي تمام في مدح المعتصم

قال أبو تمام يمدح المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد ويذكر حريق عمورية وفتحها ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الحد واللعب

والمقرر من هذه القصيدة للدراسة (15) بيتاً من المطلع السيف أصدق أنباء من الكتب إلى البيت الخامس عشر: أم لهم لو رجوا أن تفتدي جعلوا.

شرح القصيدة

مقدمة:

كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية، وراسلته الروم بأنّا نجد في كتبنا أن مدينتنا لن تفتح إلا في وقت يكون فيه التين والعنب قد نضجا. وبيننا وبين وقت النضوج هذا عينك من المقام بها عاملا البرد والثلج حيث الفصل فصل شتاء فأبى المعتصم أن ينصرف وصمم على فتحها وفتحها وأبطل ما قالته الروم عن موعد الفتح.

في **البيتين الأول والثاني** يشير الشاعر إلى أن السيف أصدق في إعطاء الأخبار من الكتب وفي شفرته (حده القاطع) التفريق بين الجد وبين اللعب وانقشاع الشك والريبة والظنون ويظهر بفعل بيض الصفائح من سيوف ورماح لا بسور الصحائف المكتوبة بالحبر الأسود، وهو في ذلك يشير إلى ما كان من آخر المنجمين ويقول أن كلام السيف أصدق من الكتب لأنه يقوم على الفعل.

وفي **البيت الثالث** يؤكد الشاعر أن العلم والخبر اليقين هو في الرماح اللامعة كالشهب والنجوم الملتحمة بين الجيشين وليس في الكواكب أو بمعنى آخر أن

المعرفة اليقينية هي التي تؤديها الرماح عندما تلمع في القتال فتبدوا كالشهب وليس في الكواكب التي يستنبطها المنجمون وقيل أنها زحل والمشتري والمريخ وعطارد والقمر.

وفي **البيت الرابع:** يتساءل الشاعر متهكماً أين ما قاله منجموهم وغيرهم من رواية موعد الفتح بل ان النجوم التي اعتمدوها في الرواية وأين الكلام الذي صاغوه ونمقوه بالزخرف وهو الكلام الموشى المائل عن الصدق وبالكذب وهو بهذا يهزأ بالمنجمين الذي تنبأوا وبالهزيمة ويقول أن كلامهم لا يعدو الكذب المنمق.

البيت الخامس يكمل في وصف كذبهم فيقول ما قالوه هو افتراء وأقوال دون لحمة أو منطق جمعوها كذباً وهي لا تستقيم ولا تتصف بالقوة ولا حتى بالهزال مكانها لا قيمة لها كاللاشيء فهي ليست قويّه كالنبع وهو شجر صلب تتخذ منه الأقواس وليست الغرب وهو نبت خاثر ينمو على الأنهار.

وفي **البيت السادس** إلى العاشر: يقول تنبئوا بدواهي لم تعهد من قبل حيث تنزل فتبث الذعر والخوف بين الناس لدرجة أن الأيام نفسها تخاف منها وتجفل فكيف يكون الحَال، بالناس وزادوا على ذلك بأن عينوا زمنها في شهر صفر أو شهر رجب واتبع ذلك بأنهم خوفوا الناس من مصيبة كبيرة في مظلمة إذ أظهر الكوكب الغربي المذنب وأعطوا للنجوم القوة التي تتصرف بمصائر الغيوم والأبراج هي بروج السماء وأولها الحمل وآخرها الحوت وزعم المنجمون منهم أنها في أقسام ثلاثة: أربعة منقلبة وهي الثور والأسد والعقرب والدلو وأربعة ذوات جسدين وهي الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت ويضيف بأنهم ينطقون باسم هذه النجوم ويبطون الحكم عنها وهي لا تدري بشيء كما أن أفلاكها وقطبها لا علم لها بكل ما نسبوه إليها.

ثم يقول لو كان لها (النجوم) قابلية وقوة بالمعرفة لأدركت الهزيمة المنكرة التي كانت على وشك أن تحل بالروم أصحاب الصليب والوثنيين، وهو بهذا يشير إلى المدح بالجهاد.

ثم يشير إلى فتح عمورية فيقول في البيت من الحادي عشر إلى الخامس عشر: إن هذا الفتح لا مثيل له من قبل ولا قوة ولا حول للشعر كبقية حقه من الوصف فهو أقصى وأبعد وأعلى من حدود التصور.

وأن الذات الإلهية/ الله ذاته قد طرب لهذا النصر لما انطوى عليه من مجد للإسلام كما أن أبناء الأرض يقيمون به أجمل الزينة والاحتفالات.

ثم يخاطب يوم وقعة/ فتح عمورية فيقول:

يا يوم وقعة عمورية لقد انصرفت منك الأماني كالنوق حافلات أي امتلأ ضرع كل بالحليب المعسول المذاق، وهو بهذا يقول يتغنى بالنصر نصر فتح عمورية وبتحقيق الأماني كلها التي ملأت الأنفس سعادة، ويضيف في البيت الذي يليه.

لقد ارتفع بهذا النصر جد/ حظ الدين فيما انحدر حظ الملحدين وأهينوا والصعيد العلى والصبب: الانحدار والانحدار وفي البيت الخامس عشر يقول:

عمورية أمهم أى أم الروح تجمعهم وترعاهم كما تضم الأم ولدها فلو استطاعوا لقدموا افتداء لخرابها كل أم لهم وكل أب.

الوحدة الخامسة

الأدب العربي في العصر المملوكي

الوحدة الخامسة
الأدب العربي في العصر المملوكي

البيئة العامة لدولة المماليك:

قامت دولت المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية التي انتهت سنة 648هـ - 1250م، إذ تولت شجرة الدر السلطة بعد موت السلطان الأيوبي الملك الصالح، وكانت قد تزوجت من عز الدين أيبك، أحد أمراء المماليك.

أسست شجرة الدر دولة المماليك البحرية التي دام حكمها من 1250–1382م، وسموا كذلك لسكناهم على نهر النيل، وتمكنت شجرة الدر – بدهائها – أن تحكم مصر رغم معارضة شديدة خاصة من الخليفة العباسي الذي لم يرق له أن تتولى امرأة حكم مصر، رغم أن الدولة العباسية آنذاك كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يبق لها إلى القليل من النفوذ الأدبي والديني.

وفي عام 1382 قامت دولة المماليك الثانية والمسماة بالمماليك البرجية، بسبب سكناهم في القلعة بجبل المقطم.

بعد هذا يحسن أن نتعرف على ألوان مختلفة من الحياة زمن المماليك ونوجزها بما يلي:

أولاً: الحياة السياسية

كان الخليفة في المجتمع المملوكي يختار من العباسيين الذين جاء بهم الظاهر بيبرس إلى مصر بعد سقوط بغداد، فقد أحيا بيبرس الخلافة العباسية بالقاهرة 659 هـ لضرورة فرضتها ظروف الحكم، إذ كان هدفه إسباغ الشرعية على حكم البلاد الإسلامية والحجازية، والجهاد حتى يتم تحرير الأراضي

الإسلامية، وكان ممن جاء بهم بيبرس الخليفة العباسي الملقب بالمستنصر، والذي كان يأمل أن يرد له بيبرس عاصمة الخلافة العباسية بغداد.

ثانياً: الحياة الدينية

استظل المماليك في دولتهم بظل الإسلام، وتشددوا في حدود الشرع، ومحاربة الخارجين على الدين، وبالغوا في بناء المساجد والمدارس ودور الحديث، التي كانت تدرس العلوم الإسلامية.

وكان من مظاهر حياتهم الواضحة الأعياد والمناسبات الدينية والاهتمام بألوان الزينة، وإنارة المساجد، والاحتفال بذكرى المولد النبوي، وقد تمتعت الجاليات الأخرى كالمسيحيين واليهود بحرياتهم الدينية.

كان سلاطين المماليك يعتبرون أنفسهم حماة الإسلام، والمدافعين عنه، فمدحهم الشعراء، وخلعوا عليهم النعوت الدينية، وقرنوا أسماءهم بأسماء الفاتحين المظفرين، والحكام الأقوياء، فأحسّ المماليك أنهم هم الملوك وحدهم دون غيرهم، لأن غيرهم تبع لهم، وخاصة بعد أن قاموا بإحياء الخلافة العباسية.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية والاقتصادية

كان المجتمع المملوكي مقسماً إلى طبقات أعلاها طبقة السلاطين، وما تبعهم من الجند والوزراء والكتاب، تليهم طبقة القضاة وكبار التجار، والفلاحين، والمزارعين وأرباب المهن الصغيرة، ثم الطبقة الدنيا من عامة الناس.

وكان شراء المماليك يتم من الأتراك الفارين من أوطانهم أمام زحف التتار، حيث كان شراؤهم لأغراض عسكرية، فقد دربت أعداد كبيرة منهم على الفروسية وفنون القتال، فأبلوا بلاء حسناً في قتال الصليبيين والمغول، وأحرزوا انتصارات رائعة سجلها لهم التاريخ.

أما الغرض الآخر لشرائهم فكان للمتعة والخدمة وخاصة شراء الغلمان.

عاش المماليك في رفاهية ونعيم وأسرف سلاطينهم في الميل إلى النساء، وتنعموا باللباس الفاخر، وركب سلاطينهم الخيل الأصيلة المدربة والمعلمة على المشي تحت أنغام الموسيقى، ولقد تفنن المماليك في ضروب اللهو واللعب، فكانوا يلعبون بالحمام، ومنافرة الديوك، ومناطحة الكباش، وصيد الطيور والغزلان والوحوش البرية، وأنفقوا الأموال الطائلة على المآدب والحفلات، وفي سبيل اقتناء الثروة كان بعض السلاطين يأمر مماليكه أن يقمعوا احتجاجات الناس وثوراتهم بالقوة، وسخروا الناس في أعمال البناء وإقامة الجسور، وشق الطرق وهكذا كانت القسوة الطابع المميز لحكمهم.

ولم يكن وضع المرأة في مجتمع المماليك وضعاً لائقاً بها، فقد فرض الحجاب على المرأة الحرة، وسمح للجارية التجول سافرة في الأسواق، واشتغلت النساء الفقيرات بالغزل والتطريز، وعملت كثيرات منهن بالمغاني ودور اللهو، والرقص، وقد ضمت القاهرة في عهد المماليك مفاسد اجتماعية مختلفة، فانتشرت السرقة، وضروب الخلاعة، وشرب الخمر، والشذوذ الجنسي، وأقبل الناس على تناول الحشيش، واعتقدوا بالتنجيم والمنجمين.

ورغم هذه الأحوال إلا أن أسواق القاهرة كانت مزدحمة بالتجارة، وازدهر فيها العمران، وظهرت بعض الصناعات، وكانت العلاقات التجارية جيدة بين مصر والشام.

رابعاً: الحياة العسكرية

تميزت دولة المماليك الأولى بطول مدة حكم كثير من سلاطينها، مما وفر لها الاستقرار، فتحققت في سنوات حكمها بعض الانتصارات العسكرية، فقد كان أهم مجالات نشاط المماليك العسكري مجالين كبيرين هما:

1. تصفية جيوب الصليبيين في بلاد الشام والشرق العربي.
2. سد الطريق أمام الزحف المغولي، الذي كان قادماً من الشرق حيث اجتاح جميع الممالك الإسلامية، وسقطت بغداد في أيديهم 656 هـ.

عزم سلاطين المماليك على التصدي لهؤلاء الأعداء، فقد هزم السلطان قطز التتار في معركة عين جالوت الشهيرة 659 هـ وهزمهم الظاهر بيبرس في معركة الفرات سنة 666 هـ، وعندما حكم الأشرف خليل قضى على الصليبيين، واستولى على عكا آخر معاقلهم سنة 690 هـ — 1291 م.

خامساً: الحياة الثقافية

بعد سقوط الدولة الفاطمية واستيلاء صلاح الدين الأيوبي على مصر؛ انقلبت طبيعة الثقافة من اللون الشيعي إلى اللون السني، وبذل صلاح الدين ومن تبعه كل طاقة في إنشاء المدارس ودور الحديث في مصر والشام، واستدعى كبار الفقهاء وعلماء السنة، وأصبحت المدن الكبيرة كالقاهرة والاسكندرية وأسيوط في مصر، والمدن الكبيرة في بلاد الشام كبيت المقدس، ودمشق وطرابلس مراكز مشعة لعلوم السنة والفكر السني.

استمرت سياسة المماليك في نشر المذهب السني والتمكين له ببناء المساجد الكبيرة، والمدارس. وارتفعت مكانة مصر في العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد. وما فعل التتار من حرق للكتب والمكتبات التي كانت تضم كنوز الفكر الإسلامي، وأصبحت مصر محطاً لعلماء المغرب والأندلس، فعمرت القاهرة بدور العلم والعلماء، ومجالس الأدب والمكتبات، وكان جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر من أقدم مدارس القاهرة، إلى جانب مدارس أخرى كثيرة كالفاضلية والصالحية والظاهرية والمنصورية ومدرسة

السلطان حسن بالقلعة.

كذلك كان الحال بدمشق عاصمة بلاد الشام ومقر نائب السلطان، فقد كانت عامرة بالمدارس الكبيرة، وكان الجامع الأموي الكبير جامعة عامرة تلقى فيه الدروس من قبل كبار العلماء من أمثال الخطيب القزويني وابن كثير، كما كانت مدينة حلب ثانية عواصم الشام الثقافية حافلة بالمدارس والعلماء.

كان التعليم الديني السني هو الغالب على العصر المملوكي، ولهذا ازدهرت علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والأصول، ونبغ في علوم القرآن والتفسير أعلام مثل عز الدين بن عبد السلام، وابن كثير العالم المؤرخ الفقيه الدمشقي المفسر.

سادساً: التصوف والأدب الصوفي

انتشرت الطرق الصوفية في عصر المماليك، وتغلغلت في أوساط الناس عامتهم وخاصتهم، واعترفت بها الدولة، لأن من مهام الصوفية الدعاء إلى السلطان والدعوة له.

سلكت الصوفية طريقين، هما:

1. طريق الزهد والفقر والتقشف والإعراض عن الدنيا.
2. طريق التقرب إلى الله للحصول على رضاه وقبوله.

وقد تمكنت في الناس عقيدة الكرامات لأولياء الصوفية، وكثر الحديث عما يأتون به من خوارق الأعمال، وظهر جماعة من كبار الصوفية المشهورين كالسيد أحمد البداوي والبغدادي وابن عربي. وقد بلغت مؤلفات ابن عربي مائة وخمسين كتاباً.

أثر ابن عربي في الفكر الصوفي فنادى بوحدة الوجود.متأثراً في ذلك بالفلسفة

الأفلاطونية، فقد تمكن ابن عربي من تطويع اللغة العربية لتوافق معانيه الجديدة.

ومن الملاحظ أن التصوف في مصر والشام التقى فيه تياران:

الأول: وفد من المغرب حيث حمله جماعة من كبار الصوفية، من الأندلس وشمال إفريقيا كالشاذلي وابن عربي.

الثاني: جاء من بلاد فارس والعراق في الشرق وحمله جماعة أمثال: جلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي.

اتخذ الصوفيون الشعر وسيلة للتعبير عما يدور في نفوسهم، لأنه أقدر على ذلك من النثر، الذي تميز بتأملات فلسفية، ومواعظ وقصص وأدعية وغير ذلك.

وكان ممن اشتهر من الشعراء في القرنين السابع والثامن الهجريين ابن الفارض وابن عربي والسروجي، واختط بعض الصوفيين طريق المديح النبوي في الشعر الصوفي كالبوصيري ناظم البردة الشهيرة والذي سنعرض لحياته وشعره وقصيدته.

البوصيري 608 – 695 هـ

نسبه وشعره:

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله، ينسب إلى صنهاجة في المغرب، لكن آباءه استوطنوا مصر، فكان أحد أبويه من أبو صير، والآخر من دلاص، من قرى بني سويف، ولهذا ينسب مرة إل الأولى فيقال: البوصيري، وينسب مرة إلى الأخرى، فيقال: الدلاصي، لكنه اشتهر بالبوصيري.

ولد البوصيري في دلاص عام 608 هـ وتوفي بالإسكندرية عام 695 هـ، وله قبر مشهور هناك يتصل به مسجد كبير تدرس فيه علوم الدين.

والبوصيري شاعر من شعراء القرن السابع الهجري، تجري في شعره النكت المستملحة، عمل في ديوان الإنشاء في الشرقية واستقر ببلبيس، ويمكن تقسيم شعره إلى قسمين:

الأول: شعره الاجتماعي، وكان هذا الشعر في المديح والهجاء وشكوى الحال، وتميز ببساطة الروح والأسلوب والقرب إلى روح الشعب لغة وتعبيراً. ومثاله: قصيدته في مستخدمي الشرقية وعمالها، إذ يسخر منهم لأنهم كانوا يأخذون الرشاوى، ويسرقون الغلال، ولولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمور، وأن بعضهم كان يأكل أموال الأيتام، وفي ذلك يقول:

نقدتُ طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهمو حراً أمينا
فقد عاشرتهم وعشت فيهم ... مع التجريب من عمري سنينا
فكتاب الشِّمال همو جميعاً ... فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ... بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً ... ولا شربوا خمور الأندرينا

الثاني: المدائح النبوية: وشعره في ذلك قوي رصين، قلد فيه القدماء في تعبيراتهم وصورهم المستمدة من الحياة البدوية، لذلك كثرت فيه أسماء بقاع الجزيرة التي ذكرها شعراء الحجاز. ومثال ذلك مدائحه النبوية التي تجري على نسق مختلف من شعره الفكاهي والاجتماعي، والتي تدل على معرفة باللغة، واستيعاب لقدر كبير من الشعر العربي القديم.

ومدائحه النبوية ثلاثة هي:

1. البردة ومطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وهذا موضوع دراستنا.

2. الهمزية ومطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طالعتها سماء

3. اللامية وفيها يعارض كعب بن زهير ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

مناسبة قصيدة البردة:

ذكر البوصيري أنه نظم قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، واتفق أن صاحبه فالج نصفي، ففكر في عمل قصيدته البردة، طالباً إلى الله أن يعافيه من مرضه، وكرر إنشادها، وجعل حبه للرسول نغمة يشدو بها، فيصلي عليه، ويبتهل لله تعالى، ويستخدم تعبيرات الصوفية ومعانيهم، وتتكرر الصلاة على النبي بشكل كبير.

نام البوصيري فرأى النبي في المنام يمسح على وجهه بيده الكريمة، ويلقي

عليه بردة، فلما أفاق؛ وجد في نفسه قدرة على الحركة، فقام وخرج من البيت، ولم يُعلم أحداً بما حدث له، لكن أحد الفقراء ألح عليه أن يعطيه القصيدة ففعل، مما يدل على طيبة قلب البوصيري، ولقد كانت هذه الحكاية سبباً في إشاعة أقوال كثيرة، فذكر بعض من شرحوا البردة أن لكل بيت من أبياتها فائدة، فبيت منها يكون أماناً من الفقر، وبيت يكون أماناً من المرض، وهكذا.

والبوصيري كغيره من الصوفيين كان قد أكثر من الصلاة على النبي عليه السلام، وهذا أمر لم يكن معروفاً في صدر الإسلام على نطاق واسع.

قصيدة البردة النبوية

أَمِـــنْ تـــذكرِجيرانٍ بـــذي سَـــلمٍ ... مَزَجْتَ دمعاً جرى من مُقلةٍ بدم [1]

أمْ هبّـت الـريحُ مـن تلقـاءِ كاظمـةٍ ... وأوْمضَ البرقُ في الظلماءِ من إضَم [2]

فمـا لعينيـكَ إنْ قلـتَ أكفُفـا هَمَتـا ... فمـا لقبـكَ إنْ قلـتَ اسْـتَفقْ يَهِـمِ [3]

أيَحْـسَبُ الـصَّبُّ أنَّ الحـبَّ مُنْكـتمٌ ... مـا بـينَ مُنسجم منـه ومُـضْطَرِم [4]

لـولا الهـوى لم تُـرِقْ دمعـاً علـى طَلَـلٍ ... ولا أَرِقْـتَ لـذكرِ البـانِ والعلـم [5]

---

(1) الجيران: يقصد بهم الشاعر سيدنا محمداً وأصحابه. ذي سلم: مكان بين مكة والمدينة. المقلة: العين.

المعنى: ما سبب مزج دمعك بالدم وبكائك الكثير من ذلك أهو من تذكر سيدنا محمد وأصحابه الكرام ؟

(2) تلقاء: جهة. كاظمة: موضع قريب من المدينة. أومض: لمع لمعاناً خفيفاً. إضم: جبل بين مكة والمدينة.

المعنى: أم أن التذكر ناشئ عن ريح الرحمة التي هبت من جهة المدينة المنورة ؟ أم من إدراك لمعان البرق ما بين مكة والمدينة ؟

(3) أكفف الدمع: دعه لا ينهمر. همتا: سال دمعهما. الهيام: إطالة السكوت وغيبة الحس وعدم رد الجواب في المحاورات.

المعنى: أيها المخاطب، ما لعينيك لا تنقطع عن مسيل الدموع رغم طلبك إليهما أن يكفا دمعهما ؟ وما لقبك إن قلت له: أفق مما أنت فيه واكتم حبك زاد هياماً ومحبة ؟

(4) الصّب: العاشق الصادق، وسمي صباً لكثرة ما يصب الدمع من عينيه. منكتم: مستتر عن الناس. منسجم: سائل بشدة. مضطرم: مشتعل.

المعنى: ينكر الشاعر على المخاطب عدم الرد على تساؤله ويقول: أتحسب أن الحب يخفى على الناس في حين أن الدمع يسيل من عيني المحب بشدة وأن نار الحب تشتعل في أحشائه.

(5) الهوى: الحب المفرط. لم ترق دمعاً: لم تصب الدمع. الطلل: ما بقي مرتفعاً عن آثار الديار فإن كان ملتصقاً بالأرض فهو رسم. أرقت: سهرت. البان: شجر طيب الريح. العلم: الجبل.

المعنى: لولا المحبة لم تسكب دمعاً على ما بقي من آثار الديار ولم تطل سهرك لذكر شجر البان والجبل الكائنين بمحل المحبوب.

فكيفَ تُنكرُ حُبَّاً بعدَ ما شَهدتْ ... بهِ عليكَ عُدولُ الدمعِ والسَّقم [1]

وأثْبتَ الوجدُ خَطّيْ عَبرةٍ وَضَنىً ... مثلَ البَهارِ على خَدَّيكَ والعَنَم [2]

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فأرَّقَني ... والحبُّ يعترضُ اللذاتِ بالأَلمِ [3]

يا لائمي في الهوى العذريِّ معذرةً ... مني إليكَ ولو أنْصفْتَ لم تَلُم [4]

عَدَتْكَ حالي لا سِرّي بمُسْتَتِرٍ ... عَن الوُشاةِ ولا دائي بمُنْحَسِمِ [5]

---

(1) تنكر: تجحد. السقم: المرض الطويل نتيجة السهر الحاصل من التذكر.

المعنى: يتساءل الشاعر: كيف تنكر أيها المخاطب حباً بعد أن شهد عليك دمعك ومرضك وهما شاهدا عدل على هذا الحب

(2) الوجد: الحزن الحاصل من المحبة. خطي عبرة: دمع سائل من عينيك. ضنى نحول نتيجة المرض. البهار: نبات طيب الرائحة ورده أصفر ينبت في الربيع ويقال له: عرارة. العنم: شجر أحمر لين الأغصان يشبه به البنان واحدتها عنمة.

المعنى: إن ما حصل لك من الحزن نتيجة المحبة وما سال من عينيك من دموع جعلت في خديك شيئاً من الاحمرار وفي هذا حجة واضحة على الحب.

(3) سرى: جاء ليلاً. الطيف: الخيال. الأرق: السهر حزناً على الفراق.

المعنى: قال المحب معترفاً بحبه: صدقت أيها السائل في جميع ما نسبته إليّ ولهذا سهرت طويلاً لأن المحب لا يصل إليه من اللذات شيء فيعتصره الألم.

(4) العذري: المنسوب إلى بني عذرة وهي قبيلة من العرب اشتهر منها شعراء عذريون أمثال: جميل بثينة، وقد سئل بعضهم فأجاب: إن في قلوبنا خفة وفي نسائنا عفة.

المعنى: يا من يلومني في حبي اعذرني ولو كنت عادلاً لم تعنف في الهوى أحداً أبداً لأنه ليس اختيارياً بل هو مرض للأبدان كسائر الأمراض.

(5) عدتك: تعدّت إليك وأصابتك أيها اللائم. حالي: أنا ما فيه من مضار العشق. سري: أمري الخفي وهو العشق. الوشاة: الحساد المفسدون بين الأحباب. منحسم: منقطع، أي لا يرجى زواله.

المعنى: ليت ما أصابني من مضار العشق يصيبك أيها اللائم فالعشق لم يعد خافياً على أحد من الحساد الذين يوقعون الفساد بين الأحباب ولا أنا بريء من الداء الذي حلَّ فيّ. ويجوز اعتبار الدعاء للائم أن ينجيه الله مما ابتلاه.

مَحَّضْتني النصحَ لكنْ لستُ أسمعهُ ... إنَّ المحبَّ عن العُذّالِ في صَمم [1]

إني اتَّهمْتُ نَصيحَ الشيب في عَذَلي ... والشيبُ أبعدُ في نصحٍ عن التُّهَمِ [2]

فإنَّ أمّارَتي بالسوءِ ما اتَّعَظَتْ ... مِنْ جَهلها بنذيرِ الشيبِ والهَرم [3]

ولا أعَدَّتْ من الفعلِ الجميلِ قِرى ... ضَيْفٍ ألمَّ برأسي غيرَ مُحْتشم [4]

لو كنتُ أعلمُ أني ما أوَقِّرُهُ ... كتمتُ سراً بدا لي منهُ بالكَتَمِ [5]

---

(1) محضتني: نصحتني وأخلصت في نصحك لي. العذال: اللائمون.

المعنى: لقد أسديت لي النصح وأخلصت في ذلك لكنني لم أسمع نصحك لأن المحب لا يسمع نصائح اللوام.

(2) اتهمت: أي بالكذب والخديعة. نصيح: ناصح. العذل: اللوم.

المعنى: ولم أقبل نصح الشيب الذي يؤذن بقرب انتهاء الأجل. ويشعر بدنو الموت والارتحال مما يوجب إقبال العبد على ما يقربه إلى الله وما ذاك إلا لعلة معينة.

(3) أمارتي: كثيرة الأمر. السوء: فعل كل شر وترك كل خير. ما اتعظت: لم تقبل الموعظة. الجهل: عدم إدراك الشيء. نذير الشيب: إنذاره بقرب نهاية الأجل. الهرم: كبر السن وضعف القوى.

المعنى: إن نفسي التي تأمرني بفعل الشر لم تتعظ بانتشار الشيب في رأسي وإنذاره بقرب موتي ولم تتعظ بكبر سني وضعف قواي. وفي هذا الصدد فإن النفوس ثلاث مراتب هي:

أ. نفس أمارة بالسوء: وهي التي تميل إلى الطبيعة الدنية وتأمر باللذات والشهوات.

ب. نفس لوامة: تلوم صاحبها على فعل قام به.

ج. نفس مطمئنة: وهي التي تطمئن في ذاتها.

(4) أعدت: هيأت. الفعل الجميل: الحسن من العبادات. الضيف: الشيب. ألمّ: نزل. غير محتسم: غير مستح.

المعنى: إن نفسي الأمارة بالسوء لم تهيئ فعلاً حسناً أمام هذا الشيب الذي ألم برأسي دون إذن مني ولا إرادة أي أنه لم يتب توبة نصوحة.

(5) لو كنت أعلم: أي قبل إلمام الشيب برأسي. أوقره: أعظمه. الكتم: نبات يخضب به كالحناء يصبغ به الشعر بلون أسود.

المعنى: لو كنت أعلم أنني لن احترم وأعظم هذا الشيب الذي ظهر لي ورأيته قبل غيري لأنني مطلع على نفسي لأخفيت شيبي بخضاب يحول لون الشيب الأبيض إلى أسود.

التفسير الفني لقصيدة البردة:

تقع قصيدة البردة في مائة وسبعة وستين بيتاً من الشعر، فهي إذن من القصائد الطوال.

وتشتمل البردة على عدة موضوعات تناولت الأبيات المشروحة منها موضوعين فقط.

ونظراً لأهمية البردة، وحتى تكون معانيها واضحة، وموضوعاتها مستوفاة، فقد رأينا أن نتناول تلك الموضوعات بإيجاز مستشهدين على كل موضوع بما يمكن أن يشير إليه من أبيات البردة.

وبناء عليه فإنه يمكن تقسيم القصيدة إلى عشرة أقسام كما يلي:

القسم الأول: خصصه الشاعر للتغزل والشكوى والتشوق إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وذكر صفاته وتمثله الأبيات من 1 – 12.

القسم الثاني: تحدث فيه الشاعر عن وساوس النفس والتحذير من الاستجابة لها، فالنفس أمّارة بالسوء إلا من رحم الله وتمثله الأبيات من 13 – 15.

القسم الثالث: مدح فيه الشاعر النبي عليه السلام وذكر صفاته وما يتمتع به من علم وأدب وأخلاق وشفاعة، وفي ذلك يقول:

محمدٌ سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

القسم الرابع: تعرض فيه الشاعر للحديث عن مولد الرسول عليه السلام وما سبق ذلك المولد من إمارات وعلامات للنبوة فيقول:

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدأ منه ومختتم

القسم الخامس: ذكر فيه الشاعر بعض معجزات الرسول كتظليل الغمام له وحنين جذع الشجرة إليه فيقول:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم
مثل الغمامة أنى سار سائرة تقيه حرّ وطيسٍ للهجير حمي

القسم السادس: تحدث فيه الشاعر عن القرآن الكريم وشهرته، وما اشتمل عليه من أشياء وأخبار عن الأمم السابقة والقديمة وفي ذلك يقول:

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم
آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

القسم السابع: جاءت فيه قصة الإسراء من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ثم قصة المعراج إلى السماء ومرور النبي بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيقول في ذلك:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم
وبتّ ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تُدرك ولم تُرَم

القسم الثامن: تعرض فيه الشاعر إلى وصف جهاد النبي عليه السلام وجهاد أصحابه الذين ثبتوا كالجبال أمام الأعداء والذين تميزوا بالإيمان القوي والثبات في الحروب مما جعل الأعداء في خوف منهم فيقول:

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ماذا رأى منهم في كل مصطدم
وسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً فصول حتف لهم أدهى من الوحم

القسمان التاسع والعاشر: توسل الشاعر بالنبي كي يشفع له عند ربه يوم القيامة ليغفر له ما اقترف من ذنوب، فيعرض حاجته مخاطباً النبي بأنه لا

يوجد من يلوذ به إلا هو عليه الصلاة والسلام. وفي القسم الأخير يكثر من الصلاة على النبي والرضا عن صحبه الكرام. ويطلب من الله المغفرة له ولكافة المسلمين. فيقول:

يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تحلى باسم منتقم

تعليق على قصيدة البردة:

كان للبردة أثر كبير في اللغة العربية، فقد أقبل الناس على حفظها، وجعلوها من أوراد الصباح والمساء، وقد طبعت البردة عدة مرات في بلدان عربية وغير عربية، وقام عدد من العلماء بشرحها، واعتنى بها الشعراء، أما الذين عارضوها فيعدون بالعشرات نذكر منهم أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته (نهج البردة) ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم

والذي يستعرض البردة النبوية يجد أن الشاعر استفهم من المخاطب، لما أنكر أن يكون سبب بكائه أحد أمرين: إما تذكر الرسول وصحبه، وإما هبوب ريح الرحمة عليه، ولما لم يجب المخاطب عن السؤال؛ وجه الشاعر إليه تغليظاً في إنكاره حالة الحب التي لا تخفى على أحد، فأقام عليه الحجج، ونادى عليه بفساد الرأي، لقد سلك الشاعر طريق البرهان، الذي هو فن من فنون الفصاحة أو ضرب من ضروب البلاغة، على أسلوب القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ (البقرة: آية 28).

وعندما قامت على المحب الحجج والدلائل الثابتة اعترف بالحب.

تنوع أسلوب شاعرنا بين جمل إنشائية تقوم على نداء أو استفهام أو غيرهما وبين جمل خبرية مؤكدة وغير مؤكدة.

وتضمنت القصيدة ضروباً بلاغية أخرى منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الاستعارة في قوله: شهدت عليك عدول الدمع والسقم.
- والتشبيه في قوله: أثبت الوجد خطي عبرة وضنى مثل البهار.
- والتفات من الخطاب إلى الغيبة في مثل قوله: أيحسب الصب أن الحب منكتم. فهذا أبلغ من نسبة الفعل إلى المخاطب كأن تقول أتحسب أن حبك ... ؟
- وفي القصيدة تذييل يجري مجرى الأمثال في مثل قوله: إن المحب عن العذال في صمم.

إن الموضوعات التي تعرض لها الشاعر في البردة والمعاني التي تضمنتها القصيدة، لتدل على سعة اطلاعه، وحسن إلمامه باللغة، فقد استعمل صيغة فعيل بمعنى فاعل في قوله نصيح الشيب.

- وفي فقه اللغة يقال: في أذنيه وقر فإن زاد فهو صمم وهذا مأخوذ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم (حبك الشيء يعمي ويصم).
- أما أن الشيب نذير نهاية الأجل فمأخوذ من قوله تعالى في سورة فاطر:

﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (فاطر: آية 37)

مدخل إلى الأدب في زمن الأيوبيين

لعب الأدب وخاصة الشعر منه دوراً هاماً في أحداث هذا العصر، وكان ترجماناً لما دار فيه، فكثر مادحو الملوك والسلاطين والأمراء، وتعلق كثير من الناس بالشعر، فصار لهم هواية محببة، يعبرون فيه عن مكنونات نفوسهم، أو يتبادلون به التهاني والرسائل، أو يتخذونه وسيلة للتسلية والمتعة في مجالسهم وأسمارهم.

وكان من بين من قالوا الشعر فقهاء وعلماء وأطباء ومهندسون وتجار وأناس من عامة الشعب، غير أن بعض هؤلاء لم يرق شعرهم إلى مرتبة الشعر الجيد، ولم يبلغوا مرتبة الشعراء المحترفين.

لقد أدى الشعر دوراً هاماً في معارك التحرير بين المسلمين والصليبيين، وكانت له حظوة، فكان الشعراء ألسنة الثناء والدعاية، وظل الشعراء المحترفون مقربين من أصحاب السلطة وكبار رجال الدولة، وامتلأت القصور بالأدباء والشعراء من الفرس والعرب.

كان هذا حال الشعر في مصر والشام والعراق، إذ كان صلاح الدين يقرب الشعراء، ويجلس لاستماع قصائدهم في تسجيل الانتصارات، لأنه كان يهوى الشعر ويحب أن يسمعه عندما يعود من المعارك، أو بعد ما يلقاه من متاعب في تصريف شؤون الدولة. ولقد اعتمد الشعراء المحترفون على الشعر للتكسب لأنهم رأوا من السلاطين إقبالاً عليه.

وإلى جانب طبقة العلماء والمتكسبين بالشعر ظهرت طبقة أخرى لا تقول الشعر تكلفاً ولا تكسباً، ولكن عن وجدان يفيض بالأفكار والمعاني، تلك هي طبقة الشعراء الصوفيين، حيث كان شعرهم زاخراً بالمعاني اللطيفة، ومن أشهر

شعرائهم ابن الفارض وجلال الدين الرومي الفارسي، وكانت تغلب على شعر هؤلاء آثار الفلسفة الهندية، كما أن كثيراً من الأفكار كانت مشتقة من الفلسفة الأفلاطونية.

ابن سناء الملك

550 – 608 هـ / 1155 – 1211 م

هو أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد المعروف بابن سناء الملك.

ولد بالقاهرة في أسرة غنية، وتولى منصب القضاء كأبيه، خالط العلماء كالشريف الخطيب والحافظ الأصبهاني فقرأ القرآن، وتعلم الحديث، ودرس اللغة والنحو، وبرع في العلوم الدينية، وكان منذ شبابه قد أظهر ميلاً عظيماً للشعر ولا سيما الموشح، ذلك الفن الجديد الذي انبعث من الأندلس، فكان أول من أدخل الموشحات إلى المشرق.

كان ابن سناء الملك معجباً بالشعراء الذين يهتمون بالصنعة والتكلف، وضروب البيان والبديع، وكان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحتري وابن المعتز.

توثقت أواصر الصداقة بينه وبين القاضي الفاضل، حيث كان يجتمع إليه في القاهرة وخارجها ويعرض عليه آثاره ويناقشه في أمور الشعر والأدب، ولطالما رحل كثيراً إليه عندما كان في دمشق.

كان ابن سناء الملك محباً لصلاح الدين الأيوبي، ظهر ذلك في مدائح كثيرة وجهها إليه باعتباره حامي الإسلام، وقاهر الصليبيين، لكنه من غير المعروف ما إذا تمكن ابن سناء الملك من الاتصال بصلاح الدين أم لا.

أحب ابن سناء الملك القاهرة، وقضى فيها أكثر أيامه، فتغنى بمجالسها، وكانت حياته فيها هانئة، يجري المحاورات والمسامرات مع الشعراء الآخرين، وظل ابن سناء الملك يعب نعيم الحياة منشداً الشعر على ألحان الموشحات حتى توفاه الله سنة 1211 م.

ظهرت عبقرية ابن سناء الملك في موشحاته وفي مدائحه لصلاح الدين وفي بعض غزلياته، إلا أن أصالته كانت في الموشح الذي أحبه وأكثر من النظم فيه، رغم اعترافه بقصوره عن مجاراة الأندلسيين في هذا الفن.

تمتاز الموشحات بحرية الوزن لأن الموشح قابل للتلحين والغناء، ولأن في الموشحات سجعاً وتكلفاً.

ابن سناء الملك يمدح الملك الناصر صلاح الدين ويهنئه بكسر الفرنج وملك بلاد الشام

لستُ أدري بأي فتحٍ تُهنّا ... يا مُنيل الإسلام ما قَد تمنّى [1]

كلُّ فتحٍ يقول أني أولى ... وهو أولى لأنه كان أهْنا [2]

أنُهنيكَ إذْ تملكتَ شاماً ... أم نهنيكَ إذ تملكتَ عَدْنا [3]

قد ملكتَ الجِنان قصراً فقصراً ... إذ فتحتَ الشآمَ حِصْناً فحصنا [4]

إنَّ دين الإسلام مَنَّ على الخلـ ... ـقِ وأنت الذي على الدين مَنّا [5]

أنت أحيْتَيهُ وقد كان ميْتاً ... ثمَّ أعتقْتَهُ وقد كان قِنّا [6]

---

(1) يقول الشاعر: لا أدري يا صلاح الدين بأي نصر أهنئك، لأن انتصاراتك وفتوحاتك كثيرة، ولأنك أعدت للمسلمين ما كانوا يتمنونه من رفعة ومكانة عالية.

(2) كل نصر لك على الأعداء، وكل فتح لحصن من الحصون، يرى أنه أحق بالتهنئة، وهذه حقيقة لأن كل نصر على الأعداء حقيق بذلك.

(3) يا صلاح الدين، هل نقدم لك التهاني لأنك انتصرت على الأعداء في بلاد الشام وأصبحت خاضعة لك ؟ أم نهنيك لأنك انتصرت عليهم في بلاد اليمن ؟.

(4) الجنان: الحدائق. القصر: ما شيد من المنازل.
يقول: لقد ملكت حدائق ذات أشجار وارفة الظلال، ومنازل مشيدة منزلاً بعد منزل، عندما فتحت بلاد الشام واستوليت على حصون الأعداء حصناً بعد حصن.

(5) إذا كان الإسلام نعمة على الناس، لأنه أخرجهم من الضلال إلى الهدى، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فقد كنت أنت نعمة للإسلام أعدت عزه ورفعت مكانة المسلمين.

(6) القن: العبد المملوك هو وأبواه، وهو بلفظ واحد للمذكر والمؤنث وجمعة أقنان.
لقد أحييت دين الإسلام بعد أن حاول الإفرنج وغيرهم القضاء عليه، وبعد أن كان تحت رحمتهم وكأنه عبد مملوك لهم، جعلته حراً، وأعتقته وعملت على نشره، وقد يكون في هذا إشارة إلى إحياء المذهب السني بعد أن كان المذهب الشيعي هو المسيطر إبان الدولة الفاطمية.

شـكرَ اللّه مـا صـنعتَ علـى العـر ... شِ وفي عَرْصـةِ الملائـكِ اثنـى [1]

لـك مـدحٌ فـوقَ الـسماوات يُنـشا ... ومحـلٌّ فـوقَ الأسـنةِ يُبنـى [2]

شـاقَ جبريـلَ بيتُـه بيـتَ جبريـ ... ـلَ فـوافى إليـه شـوقاً وحنّـا [3]

تُخـرجُ الـساكنينَ منـه وربُّ الـ ... ـبيـتِ في بيتـه أحـقُّ بِـسُكنى [4]

شـهدَ النـاسُ أنهـم شـاهدوا جبـ ... ـريـلَ ردَّ الأقـران قِرنـا فَقِرنـا [5]

فلكـمْ ضـربةٍ ولم تَـرَ ضـرباً ... ولكـم طعنـةٍ وَلَـمْ تـرَ طعنـا [6]

مَلـكٌ جنـدُهُ ملائكـةُ اللـ ... ـه فُـرادى جـاءت إليـه ومثنـى [7]

---

(1) العرصة: الساحة الواسعة لا بناء فيها جمعها عرصات.

لقد رضي الله عن صنيعك هذا، وشكر لك هذا العمل من فوق العرش، وأثنى عليك في ملائكته.

(2) الأسنة: الرماح.

لقد ارتفع شأنك وعلت مكانتك حتى وصلت إلى السماوات العلى، ولقد وصلت هذه المكانة نتيجة قوتك وبأسك في الحروب.

(3) بيت جبريل، وتكتب بالنون أيضاً، قرية بين القدس وغزة، كان فيها قلعة حصينة، دكها صلاح الدين واستنقذها من الإفرنج.

المعنى: ما حصل في بيت جبريل من قتل للأعداء هاج جبريل عليه السلام وحمله على الشوق لرؤية تلك البلدة، فأسرع إليها بدافع الشوق والحنين.

(4) لقد هزمت الأعداء في بيت جبريل، وأجبرتهم على الخروج من معقلهم فيها لأن بيت جبريل ليست مسكناً لهم، بل أنت والمسلمون أحق منهم بالسكنى فيها.

(5) القِرن: النظير والنّد في الشجاعة والمقاومة.

لقد شهد أهالي بيت جبريل أنهم رأوا جبريل عليه السلام يحارب معك، ويرد الأعداء رغم قوتهم وبأسهم فرداً فرداً.

(6) تلقى الأعداء ضربات كثيرة وطعنوا في أجسادهم طعنات كثيرة ولكنهم لم يروا ضارباً أو طاعناً لهم، لأن الملائكة كانت تحارب إلى جانبك يا صلاح الدين والملائكة لا يُرَوْن.

(7) ملكت البلاد وأصبحت مليكها وحاميها من الأعداء، بفضل جندك الذين هم ملائكة الله، جاءوا لنصرتك فرادى ومثنى للوقوف إلى جانبك ضد الأعداء.

كم تأنّى النصرَ العزيز عن الشا ... م ولما نَهضْتَ لم يتأنى [1]

قد تَعنَّيْتَ حين أحببتَ وجهَ ... اللّه بالحربِ والمُحبُّ مُعنّى [2]

ولعمري من حازَ فتحاً جليلاً ... وتعنّى فإنه ما تعنّى [3]

قمتَ في ظلمةِ الكريهةِ كالبد ... رِ سناً والبدرُ يطلعُ وهنا [4]

لم تَقفْ قطُّ في المعاركِ إلا ... كنتَ يا يوسفٌ كيوسفَ حُسْنا [5]

تجتني النصرَ من ظُباكَ كأنّ الـ ... ـعضبَ قد صَحَّفوه أو صارَ غُصنا [6]

---

(1) مضى وقت طويل على بلاد الشام وهي ترزح تحت حكم الإفرنج، وعندما نهضت للحرب بسرعة فائقة، تحقق لك النصر وحررت الشام من الأعداء.

(2) تعنيت: قصدت وتحملت الصعاب. المُعنّى: الذي يتكلف ما يشق عليه عمله.
لقد تحملت الصعاب واستطعت تخطيها فقمت بعمل يحبه اللّه، ويرضى عنه، وهو مقاومة العدو وإخراجه من ديار الإسلام. ومن أحب شيئاً تحمل من أجله كل شيء.

(3) أقسم أن بطلاً مثلك أحرز نصراً مؤزراً على أعداء اللّه، وفتح الحصون والقلاع، وحرر البلاد من الإفرنج المعتدين. متحملاً الصعاب لا يشعر بتعب أو صعوبة، لأن فرحة النصر أكبر من ذلك.

(4) الكريهة: الحرب. السنا: الضياء أو الرفعة. الوهن: الضعف. وبالنسبة للقمر: طلوعه بعد منتصف الليل.
بادرت إلى مقاتلة الأعداء، وخضت غمار الحرب، فكنت لامعاً فيها كالبدر حين يطلع وسط الظلام الحالك فيبدد ذلك الظلام.

(5) إنك لم تتوقف يوماً عن قتال الأعداء، بل كنت تخرج منتصراً في كل معركة، وكما خرج يوسف عليه السلام منتصراً من المحنة التي وقع فيها، فقد خرجت منتصراً أيضاً فازددت بهاء وجمالاً.

(6) الظبا: حد السيف، العضب: السيف القاطع. صحّف: جمع في كتاب. الغصن: غصن الشجرة وهو هنا ما يشغل عن الشيء.
لقد أحرزت انتصارات على الأعداء، إذ كنت تعمل فيهم سيوفاً حادة قاطعة، الأمر الذي أفزعهم وجعل الحديث والكتابة عن سيوفك شغلهم الشاغل.

قـصدتْ نحـوكَ الأعـادي فـردَّ الـلّـهُ مـا أمَّلـوه عنـك وعَنَّـا [1]
حملـوا كالجبـال عِظْمـاً ولكـنْ جَعَلَنهـا حمْـلاتُ خيلـك عِهْنـا [2]
جمعـوا كيـدَهم وجـاءوك أركـا نـاً فَمـنْ قَـدَّ فارسـاً هَـدَّ رُكنـا [3]
لم تـلاقِ الجيـوشَ مـنهم ولكـ ـنَّك لاقيـتَهم بـلاداً ومُـدنا [4]
كـلُّ مـن يجعـلُ الحديـدَ لـه ثـو بـاً وتاجـاً وطيلـساناً ورُدنـا [5]
يـدَّعون الغِنـى مـن النـاس لكـنْ أنـت بالنـصر كنـتَ أغنـى وأقنـى [6]
خـانَهم ذلـك الـسلاحُ فـلا الرمـ ـح تَثنَـى ولا المهنـدُ طنّـا [7]

---

(1) جاءك الأعداء يريدون قتالك، وكان أملهم أن يهزموك ويكسروا شوكتك، ولكن الله كان معك فأيدك بنصر من عنده، وردّ كيدهم عنك وعنا نحن المسلمين.

(2) العظم: العظيم، العهن: الصوف المصبوغ.
كان أولئك الأعداء مدججين بالسلاح، ولكنك قابلتهم بخيلك، واخترقت صفوفهم بصولاتك وجولاتك، حتى جعلت ما حملوه إليك من أسلحة مفتتاً ضعيفاً لا قوة فيه.
وفي البيت اقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: 5).

(3) الأركان: جمع ركن وهو القوي المتين.
لقد مكر هؤلاء الأعداء مكرهم، وكادوا لك كيداً، فجمعوا لك الجيوش القوية، ولكن جندك كانوا لهم بالمرصاد، فكلما قتل أحد شجعانهم وفرسانهم سقط ركن قوي من هؤلاء الأعداء، فقد أوجعتهم ضرباً وقتلاً.

(4) وأنت لم تلق جيوشاً بشكل فردي في ساحة قتال، بل لقيت كل البلاد والمدن بما فيها من جيوش، فهزمتهم ولحقت فلولهم المنهزمة.

(5) و (1) الحديد: أدوات الحرب كالسيوف، الطيلسان: الثوب من الحرير. الردن: الملابس ويجوز كثرة المال. أقنى: أكثر غنى ورضى.
اعتقد الأعداء أنهم تسلّحوا بكافة أنواع الأسلحة، واختفوا تماماً فيها، ولبسوا فاخر الثياب المصنوعة من الحرير، ليدللوا على غناهم وثرائهم، ولكنك حين انتصرت عليهم وجدوك أكثر منهم غنى، وما في ذلك شك فإن الله أرضاك وأغناك.

(7) المهند: السيف. طنّ: أحدث صوتاً. تثنى: تمايل.
=

وتولـتْ تلـك الخيـولُ فكـم يُثـ ـنى عليهـا بأنهـا لـيس تُثنـى [1]
واسـتحالتْ شقاشِـقُ الكُفـرِ صـمتاً حـين عـادتْ تلـك الـشجاعةُ جُبنـا [2]
أشـجعُ القـومِ فـيهمُ جاعـلُ الـدر ـعِ هروبـاً أو الفـرارَ مِجَنّـا [3]
لم يُطيقـوا الهـروبَ ضـعفاً وعجـزاً هـل يُطيقـوا الهروبَ عَقْـرى وزَمْنـى [4]
وتـصيَّدتهم بحلقـةِ صـيدٍ تجمـعُ الليـثَ والغـزالَ الأغنّـى [5]
وجـرت مـنهُم الـدماءُ بحـاراً فَجَـرْت فوقَهـا الجزائـرُ سُـفنا [6]

=

إن ذاك السلاح لم يحم الأعداء من ضرباتك، فهم لم يتمكنوا من رمي رماحهم نحوك، ولم يتمكنوا من تجريد سيوفهم من أغمادها لتلتقي بسيوف جندك، وتحدث صليلاً قوياً، وما ذاك إلا لأنك أكثر منهم قوة وأسرع منهم رمياً. وأمهر منهم باستعمال السلاح وقت الحرب.

(1) ورغم أن الأعداء كانوا يحاربون على خيول مدربة على القتال، ورغم ثنائهم عليها بأنها لا تتردد في خوض المعارك ولا تهاب إلا أنها هربت نتيجة قوتك.

(2) شقاشق الكفر: الأصوات العالية.

بعد أن كانت جلبة الأعداء وأصواتهم عالية لكثرة عددهم إلا أن تلك الأصوات تحولت إلى صمت نتيجة الرعب والخوف الذي أصابهم لشدة ما لاقوا من ضرب وقتل، كما أن شجاعتهم تحولت إلى خوف ورعب.

(3) المجن: الترس الذي يحمي المقاتل نفسه بواسطته من ضرب السيوف والرماح، إن من كان يدعي الشجاعة من أولئك الأعداء لم يجد أمامه إلا أن يختار أحد أمرين: إما أن يهرب من المعركة وإما أن يختفي وراء درعه ليقيه الضربات.

(4) عقرى: جريح أو مقطوع الساق. زمنى: ذو عاهة أو فقد بعض الأطراف لكن الهروب من المعركة أو الاختفاء وراء الدروع لم يتحقق للأعداء، الذين أصبحوا عاجزين عن ذلك، لكثرة ما أصابهم من جراح، وعاهات وبتر لبعض أطرافهم.

(5) الغزال الأغن: الغزال الذي يخرج الصوت من خياشيمه لقد أحطت بالأعداء من كل جانب وجمعتهم في مكان واحد التقى فيه الشجاع وغير الشجاع فكانوا كالصيد الذي يقع في شباك الصياد.

(6) الجزائر: الجثث المذبوحة.

سالت دماء الأعداء بكثرة وتجمعت بما يشبه البحر، فجرت جثثهم فوق تلك الدماء كما =

صُـــنِّعَتْ مـــنهمُ وليمـــةُ وحـــشٍ ... رقـــصَ المـــشرفيُّ فيهـــا وغَنَّـــى [1]

ظـــلّ معبُـــودهم لـــديك أســـيراً ... مُستضاماً فاجعل لـهُ النـارَ سـجنا [2]

صـــلبوا ربَّهـــم فلـــم يغـــنِ عـــنهم ... مـــن رأى بعـــد صَـــلبه قَـــطُّ أغنـــى [3]

وحـوى الأسـرُ كـل مَلْـك يظـنُّ الـد ... هـــرَ يَفْنـــى وملكـــهُ لـــيس يفنـــى [4]

والمليـــكُ العظـــيم فـــيهم أســـيرٌ ... يتَثنـــــى في أدهـــــمٍ يتثنـــــى [5]

يحـــسِبُ النـــومَ يقظـــةً ويظـــنُّ الـــشّـ ... ـخصَ طوراً ويُبصر الشمسَ دجنا [6]

كـــم تمنـــى اللقـــاءَ حتـــى رآه ... فتمنـــى لـــو أنـــه مـــا تمنـــى [7]

=

تجري السفن على صفحة الماء.

(1) المشرفي: السيف وهذا النوع منسوب إلى موضع باليمن.

لقد طحنت الأعداء طحناً فاختلطت عظامهم بلحومهم، بعد أن أعملت سيوفك المشرفية فيهم وبذلك أصبحت جثثهم طعاماً وفيراً للوحوش.

(2) و (4) المستضام: المقهور، الذليل.

يشير الشاعر هنا إلى الصليب الذي سلب بعد انهزام الأعداء في حطين وأسر الملك والإبرنس صاحب الكرك وغيرهما من الإفرنج، فأصبح ذلك الصليب ذليلاً بين يديك، ويسأل الشاعر ربه، أن يجعل النار سجناً له، وبذلك لم ينفعهم صليبهم حتى لو رأوه توسلوا به فهو لا يمنعهم من القتل.

(4) و (6) وحوى الأسر كل ملك كان يظن أن ملكه سيبقى حتى لو فني الدهر، وأصبح الملك العظيم فيهم بعد أن كان يمتطي الخيل القوية المتمايلة في سرعتها أسيراً يتمايل من شدة الضرب.

(6) الطور: الجبل العظيم.

إن الملك العظيم من الأعداء، ولشدة ما رأى من أهوال وهزائم، أصبح يرى ذلك الرعب في نومه فيظنه حقيقة، وأصبح يرى كل شخص أمامه من رجالك كالجبل الضخم العظيم، وأصبح لا يرى شمس النهار فيظن النهار ليلاً.

(7) كان هذا الملك العظيم يتمنى لقاءك يا صلاح الدين ليقضي عليك فلما رأى بأسك وشدتك في اللقاء وقوتك على الأعداء، تمنى أنه لو لم يكن قد رغب وأحب ذاك اللقاء.

ظـــن ظنّـــاً وكنـــتَ أصـــدقَ في الـــ ... لـــه يقينـــاً وكـــان أكـــذبَ ظنـــا [1]

رقَّ مـــن رحمـــةٍ لـــه القيـــدُ والغُـــلُّ ... عليـــــه فكلمـــــا أنَّ أنّـــــا [2]

واللعـــينُ الإبـــرنْسُ أصـــبحَ مـــذبو ... حـــاً تمنّـــى لم يَعْـــدم اليـــومَ يُمنـــا [3]

أنـــت ذكَّيْتَـــهُ فوَّفيـــتَ نَـــذراً ... كنـــتَ قدَّمْتَـــه فجوزيـــت حُـــسْنا [4]

وتهـــادتْ عـــرائسُ المـــدْنِ تُجلـــى ... وثمـــارُ الأمـــوالِ مـــنهن تُجنـــى [5]

لا تُخـــصُّ الـــشآمُ فيـــك التهـــاني ... كـــلُّ صُـــقعٍ وكـــل قُطـــرٍ مُهنّـــى [6]

---

(1) ظن هذا الملك أنه سيوقع فيك الهزيمة، ولكن أمله خاب، لأنك كنت على حق ويقين بأن الله سينصرك.

(2) الغُل: طوق من الحديد يجعل في اليد أو في العنق.

إن هذا الملك الذي وقع في الأسر ووضع قيد الحديد في يديه، أخذ يتألم بشدة، تجعل قلب كل إنسان يرق له، وليس هذا فحسب، بل لقد رق إليه الحديد، فكان كلما تألم تألم قيده الحديدي معه.

(3) اليُمن: البركة.

وذاك الإبرنس صاحب الكرك، الذي نقض المعاهدة، وقتل بعض المسلمين خلال الهدنة، وسبّ الدين الإسلامي، وقع جريحاً فلم ير الخير في ذلك اليوم.

(4) ذكيته: ذبحته وأسلت دمه كما تذبح الأنعام.

كان صلاح الدين قد قطع عهداً على نفسه إن انتصر وظفر بالإبرنس ليقطعن عنقه وفعلاً ظفر به وقتله، وإلى هذا يشير الشاعر بقوله:

لقـــد أوفيـــت نـــذرك وقدمتـــه لله ... فنـــسأل الله أن يجزيـــك خـــير الجـــزاء

(5) تُجلى: تعرض بزينتها وحليها.

بعد هزيمة الإفرنج خضعت لك مدن الشام، وجاءتك تتهادى في زينتها وحليها كما تتهادى العروس، وأخذت تجني الأموال الطائلة من تلك البلاد لأن خيراتها ومواردها أصبحت ملك يديك.

(6) إننا لا نهنئ الشام وحدها بانتصارك على الإفرنج لأن كل بلدة وكل قطر من أقطار الشرق الإسلامي يستحق التهنئة.

قـد ملكـتَ الـبلادَ شـرقاً وغربـاً ... وحويـتَ الآفـاقَ سـهلاً وَحَزْنـا [1]

وتفـردتَ بالـذي هـو أسمـى ... وتوحَّـدْتَ بالـذي هـو أسـنى [2]

واغتـدى الوصـفُ في عُـلاك حسيرا ... أيُّ لفـظٍ يُقـال أو أيُّ مَعْنـى [3]

وسمعنـا الإلـهَ قـال أطيعـو ... هُ سَـمعنا لربنـا وأطعنـا [4]

(1) لقد أخضعت البلاد شرقاً وغرباً وأصبحت تابعة لك بسهولها وجبالها.

(2) أسنى: من السناء والرفعة.

أصبحت يا صلاح الدين متحلياً بأسمى الصفات وانفردت بالنصر دون الملوك وصرت الوحيد في هذا العالم الذي بلغ العز والمكانة العالية.

(3) الحسير: المتعب، الضعيف.

ومهما قيل فيك من الألفاظ والمعاني فإنها تبقى قاصرة عن الوصف، ولا يستطيع المادحون أن يصلوا في أقوالهم ومعانيهم إليك في علاك

(4) وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نطيعه ونطيع أولي الأمر منا فإننا لا نملك إلا أن نقول: سمعنا أمر ربنا فأطعناه وأطعناك.

مناسبة القصيدة:

نظم ابن سناء الملك هذه القصيدة سنة 583 هـ، قبل فتح صلاح الدين لبيت المقدس، ويشير فيها إلى الانتصارات العظيمة التي أحرزها كانتصاره في معركة حطين، واستيلائه على كثير من المعاقل والحصون التي كانت في أيدي الإفرنج، مثل طبرية وعسقلان وبيت جبريل وغيرها من مدن وقلاع فلسطين وبلاد الشام.

الشرح الفني للقصيدة:

بدأ الشاعر قصيدته متسائلاً بأيّ فتح يهنئ صلاح الدين، ففتوحاته متعددة، وانتصاراته كثيرة، فصلاح الدين بطل أعاد للمسلمين مكانتهم، وأعاد للإسلام عزه ورفعته، فقد استطاع أن يهزم الإفرنج والصليبيين ويستنقذ البلاد منهم، وهو الأمر الذي كان أمنية كل مسلم.

ثم يذكر الشاعر أن هذا العمل الذي قام به صلاح الدين عمل يرضى عنه الله سبحانه وتعالى، ويثني على هذا الصنيع في ملائكة السماء، فقد لقي أعداء الله على يد صلاح الدين وجنده شر الهزائم، واعتراهم الذعر والخوف، فضربوا وطعنوا دون أن يروا ضارباً أو طاعناً، ذلك أن الملائكة كانت تحارب إلى جانب صلاح الدين حتى أن جبريل عليه السلام تشوق لرؤية الحصون والقلاع التي استخلصها صلاح الدين من أيدي الأعداء.

وقد أحسن الشاعر تصوير مشاعر المسلمين في كل قطر قام صلاح الدين بتحريره.

وأحسن التصوير حين ذكر أن سيوف صلاح الدين حادة قاطعة، فبعد أن جاء الإفرنج لقتال صلاح الدين بكامل عددهم وعدتهم، وبعد أن كانوا مغترين بشجاعتهم ومبتهجين بأصوات مجلجلة عالية، فرحين بتحقيق أمنياتهم بلقاء صلاح

الدين آملين القضاء عليه، إذ بهم يصبحون جبناء وتسكت أصواتهم، فقد أحاط صلاح الدين بهم ولم يتمكنوا من الهرب لكثرة جراحهم وفقد أعضائهم فوقعوا في الأسر، وتمكن صلاح الدين من ضرب رقاب سادتهم.

ويشعر القارئ للقصيدة أنه أمام منظر حقيقي تسيل فيه دماء الأعداء بكثرة حتى كونت ما يشبه البحر من الدماء، وبذلك جرت جثثهم بعد طحنها فوق تلك الدماء، وكانت طعاماً شهياً للحيوانات.

لقد ذعر الأعداء من بأس وقوة صلاح الدين وجنده فلم يعد هؤلاء الأعداء يرون شيئاً على حقيقته، فالحلم عندهم حقيقة، وكل رجل أمامهم جبل ضخم لا يمكن قهره وكل نهار ظلام، ولهذا فقد تمنوا أن لو كانوا ما تمنوا لقاء صلاح الدين.

إن العمل الذي قام به صلاح الدين يرضى عنه الله، لذلك أيده بنصر من عنده، لأنه كان واثقاً بنصر الله، ولأنه قام يدافع عن دين الله، فهزم الإفرنج، وملك البلاد، ولذلك حق للناس أن يهنئوا أنفسهم ويهنئوا هذا القائد بما أحرزه من انتصارات، ولكن الأقوال مهما بلغت فصاحتها فإنها لا تستطيع أن توفيه حقه، فقد أصبح هذا البطل الوحيد القادر على النصرة، وما على الناس إلا أن يذعنوا لأوامر الله الذي أمرهم بطاعته وإطاعة أولي الأمر.

التعليق:

هذه قصيدة يمدح فيها الشاعر البطل القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي، الذي هزم الصليبيين، وأجلاهم من بلاد الشام والشرق، وخلص العباد من حكمهم.

إن المتمعن في أبيات القصيدة يرى الشاعر وهو يصور رغبة الناس آنذاك في التحرير، وعودة البلاد إلى حظيرة الإسلام، وهو أمر يحتاج إلى وجود قائد شجاع،

مؤمن بالله، معتمد عليه، راغب في الجهاد في سبيله وإعلاء دينه، فكان ذلك القائد صلاح الدين، الذي كال الضربات للأعداء فكسر شوكتهم وقتل ملوكهم.

إن صنيعاً كصنيع هذا البطل يحتاج أيضاً إلى جهد كبير، وإعداد جيد للحرب وهذا يتطلب صبراً ووقتاً طويلاً وعناء كثيراً، ولكن الشاعر يقرر حقيقة هي أن نشوة النصر تنسي المحب ما يتعناه من تعب.

وقد أحسن الشاعر حين وصف الأعداء بالشجاعة والقوة ولو كانوا ضعافاً لم يكن لصلاح الدين فضل الانتصار عليهم، وهذه لفتة جميلة، فقد تمنى الأعداء لقاء صلاح الدين ليقضوا عليه، وغرهم في ذلك كثرة عددهم وعتادهم، ولكن سرعان ما انقلب السحر على الساحر، فصلاح الدين أكثر منهم شجاعة وقوة، وقد تمكن هو وجنده من الإحاطة بالأعداء، فأعملوا أسلحتهم فيهم، ولم يستطيعوا حتى الهروب من المعركة، فأسر منهم من أسر، وقتل منهم من قتل.

وما أجمل تصوير الشاعر للمعركة بأنها أصبحت بحراً من الدماء، تجري فوقه جثث القتلى من الأعداء.

بمثل هذا النصر يتغنى الناس، ويهنئ بعضهم بعضاً، ويفرح أهل البلاد، وتصبح كل مدينة في أبهى حللها وزينتها كالعروس يوم زفافها.

وبمثل هذا النصر، تلهج ألسنة الشعراء بالمدح، ولكن أنّى لهم أن يصفوا ذاك الصنيع، وبأي كلمات يمدحون ذاك البطل، فالكلمات وكل ما تحويه من معان تقصر عن الوصف.

الأسلوب:

تميز أسلوب الشاعر بالسهولة، واختيار الألفاظ المناسبة، وقد جاءت ألفاظه بقدر معانيه، ولما كانت المناسبة مناسبة فرح وابتهاج فقد زين الشاعر أسلوبه بألوان

من البديع، ما بين جناس وطباق وتشبيه واستعارة وغير ذلك من بيان وبديع.

وقد أكثر من التصوير فسلاح الأعداء خائن، وصلاح الدين يذكي الإبرنس كما تذكى الشاة، كل ذلك بتشابيه واستعارات جميلة.

العاطفة والخيال:

جاءت عاطفة الشاعر صادقة معبرة عما يجول في نفسه وفي نفوس الناس أجمعين، ولا شك فهي عاطفة حب الوطن وحب الدين وحب التحرر من ربقة المحتل، فلا عجب أن تكون العاطفة قوية.

أما الخيال فقد حلق الشاعر في خياله. وأجاد في وصفه ومدح صلاح الدين بما يستحق، ولعل القارئ يشعر أن الشاعر يأخذ بيده من عالم الخيال إلى عالم الواقع المحسوس.

الوحدة السادسة

الأدب العربي في بلاد الأندلس

الوحدة السادسة
الأدب العربي في بلاد الأندلس

مدخل إلى الأدب الأندلسي

تشمل كلمة الأدب الشعر والنثر، وطوال القرنين الثاني والثالث الهجريين، كان الأدب متمثلاً بالطابع الرسمي، لبسط أخبار الفتن والثورات، وبيان سياسة الحكم في البلاد، وما يتعلق بحقوق الرعية وواجباتها، فانحصر الأدب في معالجة الموضوعات المختلفة والخطب في حدود ضيقة، ولم ينهض الأدب الأندلسي إلا في القرن الرابع الهجري، حين بلغت الدولة الأموية ذروة قوتها، ونفوذها السياسي، وأوج حضارتها، فبعد أن أعلن الناصر لدين الله الخلافة سنة 316 هـ أصبح هناك ضرورة لوجود وجوه من التنظيم والتشريع داخل البلاد، لتنظيم الشؤون المالية، والعملة والجباية، وإنشاء علاقات دبلوماسية مع الإمارات الأخرى، وترتب على ذلك زيادة عدد الوزراء وأصحاب المناصب العليا، وكثرة الدواوين والاهتمام بالأدباء.

يضاف إلى ذلك أن الحياة العقلية أتت أكلها نتيجة الاستقرار والرخاء والأمن الذي ساد البلاد، في عهد الخلافة، وبفعل الاتصال الثقافي الواسع بالمشرق من خلال رحلات العلماء من الشرق إلى الأندلس، ورحلات الأندلسيين إلى المشرق، وكان من بين هؤلاء علماء ومؤدبون ورواة وطلاب علم، فساهم ذلك في نقل ذخائر التراث المشرقي إلى الأندلس في مجالات العلوم المختلفة، وأدى بدوره إلى نهضة أدبية وعلمية كبيرة.

ولقد قام الخلفاء بدور بارز في سبيل إذكاء هذه النهضة، منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر 300 ـ 350 هـ الذي كان يبعث التجار لشراء الكتب الشهيرة بأغلى الأثمان وإحضارها إلى الأندلس مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني

إلى جانب انفتاحة على الثقافات الأجنبية كالإغريقية، واللاتينية عن طريق ترجمة بعض الكتب عن هاتين اللغتين.

وأخذت هذه النهضة تنمو وتقوى في عهد الحكم المستنصر 350 ـ 366 هـ ابن الناصر لدين الله، حيث كان هذا محباً للعلم، مكرماً لأهله، جمّاعاً للكتب من مختلف الأنواع، إذ سار الحكم على نهج أبيه في إكرام العلماء، وبذل الأموال في سبيل العلم حتى قيل: لقد ضاقت خزائنه عن استيعاب الكتب التي بلغت أربعمائة ألف مجلد.

ونتيجة لهذا الاهتمام برز عدد من النابغين والمشتغلين بالعلم من الأندلسيين في مختلف المعارف والعلوم في الأدب واللغة والفقه والفلسفة والطب والفلك والرياضيات.

ولما كان الأدب من بين العلوم التي ازدهرت في بلاد الأندلس، فلا عجب إذن أن يزدهر الشعر والنثر، وإذا كان الشعر ضرورة من ضرورات الحياة؛ في فترة من الفترات؛ فقد كان ازدهار النثر أكثر ضرورة ليصور الأشياء الجديدة، لذلك أصبح الشعر ضرباً من الترف والزينة، لكن الحياة لا تستطيع الاستغناء عن كليهما.

وبعد وفاة المستنصر بالله حدث الاضطراب السياسي، الذي أصاب البلاد، واندلعت الفتن ونشب الصراع بين خلفاء بني أمية الضعاف، وكان الصراع على الحكم فانتهى بهم الأمر إلى انفراط عقدهم في بدايات القرن الخامس الهجري.

انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة متناحرة فبدأ عهد جديد في الأندلس هو عهد ملوك الطوائف سنة 422 هـ الموافق 1030 م فعاشت البلاد في حالة من الفوضى والفساد والحروب الأهلية وعلى الرغم من هذا الصراع السياسي الذي عاناه المجتمع الأندلسي منذ أواخر القرن الرابع الهجري و على امتداد القرن الخامس، إلا أن الأدب بشكل عام والنثر بشكل خاص قد أصابه تطور ملحوظ فتنوعت الموضوعات وحظيت الأندلس منذ بداية القرن الخامس الهجري بمجموعة من كبار الأدباء

كابن شهيد وابن زيدون وابن طفيل ولسان الدين بن الخطيب.

إن الطبيعة الأندلسية الجميلة دائمة الخضرة جعلت الناس يتأثرون بهذا الجمال الأخاذ، خاصة الشعراء كابن خفاجة، فقد كان الشعراء يرون أن جمال الطبيعة يجلو صدأ النفوس، لذلك نجد أن عدداً من الأدباء قام بجمع ما قيل من شعر في صدر عصر ملوك الطوائف، كما فعل ابن فرج الجياني في كتابه (الحدائق) وكما فعل أبو الوليد الحميري في كتابه (البديع في وصف الربيع)، مما يدل على ولعهم بالطبيعة وعلى غزارة ما نظم من شعر فيها، ومن أشهر الشعراء في هذا المجال ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأندلسية، والذي ولد خلال عصر ملوك الطوائف.

ومن الشعراء أبو البقاء الرندي المولود في بداية القرن السابع الهجري، وهو شاعر رثاء الأندلس.

وظهر من شعراء الحنين أبو عثمان القرشي الملقب بالرئيس، لأنه حكم جزيرة (ميورقة) شرقي الأندلس والمولود أيضاً في بداية القرن السابع، والذي تمتع بحسن إدارة تلك الجزيرة الإسبانية، فنال رضى أهلها.

أبو البقاء الرندي 601 ـ 684 هـ.
1204 ـ 1285 م

هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، ويكنى بأبي البقاء.

ولد في بداية القرن السابع الهجري وينسب إلى مدينة رندة إحدى كبريات مدن الأندلس، وبها تلقى علومه المختلفة عن شيوخ عصره، عايش محنة الأندلس الكبرى، وعاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت من الداخل والخارج، وشاهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في أيدي الأسبان النصارى، تنقل بين مدن الأندلس فقد ذكر ابن الخطيب "إن أبا البقاء كان كثير الوفادة على غرناطة، ينشد ملوكها وأمراءها، وقد عاصر أواخر دولة الموحدين، إزاء تلك الأوضاع كان من الطبيعي أن يلجأ الشاعر إلى البحث عن الأمن والاستقرار، فتنقل في بعض مدن الأندلس، ثم غادرها إلى مدن المغرب، وخلال تنقلاته عانى محنة الاغتراب عن الأهل والوطن، وقد انعكست تلك المعاناة في شعره، وتكررت في قصائده الألفاظ الدالة على الغربة والحنين، والتحسر على الوطن.

كان أبو البقاء الرندي من الفقهاء وحفظة الحديث، وكان بارعاً في نظم الكلام ونثره، ولذلك أجاد في المدح والغزل والوصف والزهد، إلا أن شهرته تعود إلى قصيدة نظمها بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية.

كان ذلك عندما أخذ ابن الأحمر محمد بن يوسف أول سلاطين غرناطة في التنازل للأسبان عن عدد من القلاع والمدن إرضاء لهم وعملاً بأن يبقى على حكمه غير المستقر في غرناطة.

ترك الرندي نتاجاً شعرياً لكنه متناثر في العديد من المصادر التاريخية

والأدبية التي ارّخت لحياته، وقد أشاد بشعره كثير من النقاد والمؤرخين، فقد ذكر ابن الخطيب أن شعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ، وما يهمنا منه هو ذلك الجانب الوجداني الذي يحن فيه الشاعر إلى وطنه، وذكرياته الماضية، ومن أشهر قصائده القصيدة النونية في رثاء الأندلس والتي نحن بصدد دراستها وهي قصيدة طويلة تبلغ واحداً وأربعين بيتا من الشعر.

رثاء الأندلس

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... منْ سَرّه زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتماً كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان؟

وأين ما شاده شداد في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان؟

أتى على الكل أمر لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

دار الزمان على دارا وقاتله ... وأمّ كسرى فما آواه إيوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً وما ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا مردّ له ... هوى له أحد وانهدّ نهلان

أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان؟

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نُزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
حيث المساجد قد أضحت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة إنْ كنت في سِنةٍ فالدهر يقظان
وما شياً مرحا يلهيه موطنه أبعد حمص ثغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنْست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطا ن
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
لماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيّات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان
يا مَن لذلة قوم بعد عزّهم أحال حالهم جورٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الضد عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاءهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا ربّ أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أوراح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

اللغة:

السابغة: الدرع

الخرصان: الرمح

ينتضي السيف: يسله من غمده

الطيف: الخيال

الوسنان: الذي يغلبه النعاس

فجائع: مصائب

ابن ذي يزن: ملك حميري طرد الأحباش من اليمن بمساعدة كسرى أنو شروان الفارسي

السلوان: النسيان أو الانكشاف والزوال

هيمان: محب شديد الوجد

مرهفة: دقيقة حادة

النقع: المعركة

الرتع: الراحة والسكون

مناسبة القصيدة:

أخذت سيطرة العرب في نهاية حكمهم لبلاد الأندلس تتضاءل شيئاً فشيئاً، بسقوط بعض المدن الإسلامية الهامة في أيدي الفرنجة، وأصبحت البلاد تروّع كل يوم بغارات الأعداء، دون أن تجد قوة إسلامية تصد الزحف الصليبي المتوغل، وقد أدرك المفكرون هذا الخطر المحيق بالبلاد فانطلق الشعراء والأدباء يصورون النهاية المتوقعة في حسرة بالغة، ومما قيل في هذه المأساة قصيدة رثاء الأندلس التي صاغها شاعر متفجع يبكي الوطن الضائع ويحذر المسلمين في شتى البقاع.

الشرح الإجمالي للقصيدة:

يقرر الشاعر حقيقة هي أن كل شيء إذا بلغ ذروته واكتماله فلا بد وأن ينتقص من ذلك الكمال فلا يتملك الإنسان غرور إن كان في رغد ورفاه عيش، فقد يزول ذلك العيش أو يتحول، فالأيام دول، وإذا سُرَّ الإنسان في وقت من الأوقات، فقد يساء له في أوقات أخرى، لأن الدنيا لا تدوم على حال.

والدهر كفيل أن يضعف القوي فالسيف الحاد قد ينبو في يد صاحبه فلا يقطع والرمح قد لا يصيب، والدهر للإنسان بالمرصاد، حتى ولو بلغت قوته كسيف ابن ذي يزن الحميري محرر اليمن من الأحباش، وحتى يدلل الشاعر على صحة ما يقول يتساءل عن مصير ملوك اليمن العظام، وعمن بنى مدينة إرم الجميلة التي ورد ذكرها في القرآن: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ (الفجر: 7–8) "إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد"، كما يتساءل عن ملوك الفرس وعن الأموال التي جمعها قارون وعن قبائل بادت مثل عاد وشداد وقحطان، ويجيب عن تلك التساؤلات بقوله: لقد بادوا جميعاً فكأنهم لم يعيشوا يوماً واحداً ولم تُغن عنهم أموالهم وأملاكهم شيئاً، فأصبح ما كانوا يملكونه شيئاً من الخيال أو حلماً كما يراه النائم.

ويستطرد قائلاً، لقد جار الزمان وظلم زعيم الفرس دارا وعندما تحول ذاك الزمان نحو عظيم الفرس كسرى أنوشروان، ضاق عليه إيوانه وقصره، وكأنه لم يذلل الصعاب وينشئ امبراطورية عظيمة، وكأن سيدنا سليمان عليه السلام لم يملك الدنيا ولم تسخر له الأشياء.

فالحقيقة أن مصائب الدهر متنوعة وفي الزمان ما يفرح وما يحزن، وقد ينسى الإنسان ما يحل به من مصائب أحياناً، غير أن مصيبة الأندلس لا يمكن نسيانها، لأن هذه الجزيرة أصابها أمر عظيم هوى له جبل أحد وغيره من الجبال لشدة الهول

لقد كان مصاب الأندلس مصاباً جللاً وكأن عين حاسد أصابت تلك الجزيرة فأزيلت منها المدن، وإن أردت أن تعرف مقدار ذلك البلاء فاسأل مدنا مثل بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة مهد العلوم ومنبع العلماء الأفذاذ ماذا حل بها، وأسأل مدينة حمص عن حدائقها الغناء ونهرها العظيم المتدفق.

لقد كانت تلك المدن قواعد البلاد فما قيمة العيش إذن بعد زوال هذه القواعد؟ حتى الناس الذين حاربهم الإفرنج أخذوا يبتعدون عن دينهم الحنيف، فالمساجد تحولت إلى كنائس، علقت عليها صلبان القوم، وقرعت فيها الأجراس، وأخذت محاريب المساجد تبكي خطباءها وترثي من كان يصلي فيها من المسلمين.

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى كل مسلم فيقول: إذا كنت غافلاً عما يجري من حولك فأفق واتعظ بأفعال الدهر لأن الدهر لا يغفل، وإذا كنت لاهياً عن وطنك فلا تطمع بأن يكون لك ملك فيه، وإذا كان الناس قد نسوا ما حلّ بهم في سالف الأيام فإن ما حلّ بالأندلس الآن لا يمكن أن يُنسى مدى الدهر.

وبعد ذلك يخاطب كل مسلم غيور مستنجداً وقائلاً:

أيها الراكبون الخيول الأصيلة السريعة التي تشبه في عدوها العقبان في سرعتها وأيها الحاملون السيوف الحادة اللامعة والقابعون بعيداً في بلادكم، أنتم تعيشون في راحة وهناء وسكون وتشعرون بالعزة والسلطان أما وصلكم الخبر العظيم عن الأندلس؟

إن قتلى وأسرى الأندلس يرسلون صيحات الاستغاثة ولكن لا مغيث لهم، لأن الفرقة بين المسلمين بلغت أوجها بعد أن جعلهم الله إخواناً وجعلهم معتصمين بحبله المتين ثم يتساءل: أليس بينكم أشخاص ذوو همم عالية؟ أليس بينكم من يعين على الخير وينصر المظلوم فيهب لنجدة إخوانه في الأندلس؟

من يأخذ بأيدي هؤلاء القوم الذين أصبحوا أذلاء بعد عزة، فقد حول الظلم حالهم، فبعد أن كانوا يملكون الدنيا أصبحوا عبيداً، لا يعرفون ما يفعلون، وليس لهم من يأخذ بأيديهم، والفرنج يسومونهم من العذاب ألواناً.

ويقول: لو شاهدت أولئك الناس وهم يبكون لرثيت حالهم ولملئت من أمرهم رعبا. فكم من أم فارقت طفلها كما تفارق الروح الجسد، وكم من طفلة جميلة كاللؤلؤ وقعت في أيدي الإفرنج فقادوها عنوة إلى حيث تكره فتبكي العين لمنظرها ومصيرها ويحتار القلب فلا يدري المسلم ماذا يفعل.

لمثل هذه الأمور يحزن القلب ويذوب حسرة وأسى إذا كان فيه شيء من الإسلام أو الإيمان لأن المسلم أخو المسلم.

الأسلوب:

تميز أسلوب الشاعر بالقوة والرصانة، وتقرير حقائق في هذا الكون كما جاء أسلوبه بكثير من التساؤلات التي لم يترك للقارئ فرصة الإجابة عنها بل "أجاب عنها مثبتاً أن كل شيء يصير إلى زوال. وجاء الأسلوب محذراً مما حلّ بالأندلس من فرقة بين المسلمين، ومستنجداً بذوي الهمم العالية والحريصين على حب الخير أن يهبوا لنجدة إخوانهم الذين يلاقون صنوف العذاب على أيدي الإفرنج.

لقد أجاد الشاعر تصوير مأساة الأندلس بأسلوب يدل على سعة إطلاع بالدين والتاريخ واللغة وأخبار السابقين فلم يجعل مأساة الأندلس خبراً لأن الخبر للشيء البسيط بل جعلها نبأ لأن النبأ شيء عظيم يختلف فيه الناس كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ ﴾

(النبأ: آية 1 – 3).

ولا شك أن مثل هذا الأسلوب يؤثر في النفس فيثير الهمم فيتأثر المسلم لهذا المصاب الجلل، لذلك عدت القصيدة بحق مرثية لبلاد الأندلس فتبدو فيها عبارات الحزن والأسى.

العاطفة:

عاطفة حزن وأسى وتحسر، فليس أعز على المرء من وطنه، خاصة إذا كان وطنه جنة خضراء كالأندلس، ومهد حضارة وعمران، ومكان عز وسلطان. لذلك جاءت العاطفة صادقة نابعة من قلب مؤمن بالله محب للوطن ولبني قومه.

البلاغة:

حفلت القصيدة بأنواع من البلاغة كثيرة يضيق المجال بذكرها جميعها لذلك نشير إلى بعض منها على سبيل التمثيل وليس الحصر.

التشبيه: الأمور دول

السيوف نيران

طفلة مثل حسن الشمس

الخيل عقبان

الجناس: سلوان وسلوان

الكناية: وراتعين وراء البحر في دعة

يذوب القلب

الطباق: تم ونقصان

ذلة وعز

التذييل: من سره زمن ساءته أزمان

ابن خفاجة

هو أبو أسحاق إبراهيم بن أبي الفتح المعروف بابن خفاجة. شاعر الطبيعة الأندلسية دون منازع، ولد هذا الشاعر خلال عصر ملوك الطوائف سنة 1058 م وتوفي سنة 1138 م، وعندما هزم المرابطون دول الطوائف كان الشاعر في عقده الرابع.

اشتهر ابن خفاجة بأشعاره التي كان يتناقلها الرواة، وعندما بلغت بعض قصائده ملوك الطوائف أعجبتهم ولفتت أنظارهم إلى قائلها فحرصوا على أن يكون ذاك الشاعر في بلاطهم ليسمعهم قصائده الرائعة، غير أن الشاعر رفض دعوتهم ليبقى حراً طليقاً ينظم أشعاره متى شاء، وكيف شاء. ولا يعتقد أن لابن خفاجة مدائح في ملوك الطوائف، لأن معظم النقاد يعتبرونه من شعراء المرابطين، ولم يتأثر كغيره من الشعراء الذين ربطوا حياتهم ببلاط ملوك الطوائف بل ظل منعزلاً في جزيرته النائية ألا وهي جزيرة شقر.

على أن هذا الشاعر لو ظل منقطعاً طيلة حياته في تلك الجزيرة لكان ظاهرة فريدة في تاريخ الشعر العربي، لكنه تأثر بمؤثرات الحياة كغيره من شعراء المرابطين، فنزل إلى معترك الحياة، وربما كان بعده عن ملوك الطوائف سبباً في تقريب أمراء المرابطين له، فمدح بعضهم ورثى بعضهم الآخر بعدد من القصائد وكان إبراهيم بن يوسف تاشفين ممن مدحهم الشاعر.

وكان بين الحين والآخر يتذكر جزيرة شقر فيحن إليها، وأخيراً تغلب عليه ذلك الحنين فعاد إلى شقر، فيتذكر أحياناً ماضيه فيندبه، ويبكي جمحات شبابه أحياناً بكاء التائب النادم، ولم يزل على ذلك حتى وفاته.

الطبيعة الأندلسية

الطبيعة في الأندلس ساحرة أخاذة، تحيط بها بحار هادئة، وسماء صافية، وتربة خصبة، واللون الغالب على بلاد الأندلس هو الخضرة الدائمة، لون الأشجار الوارفة المورقة والحشائش اليانعة، ويتخلل هذه الطبيعة أنهار وغدران، وجبال سمر وألوان من الزهور العديدة.

وتتميز الطبيعة الأندلسية بنسيم عليل يتهادى بين الرياحين، وطيور مغردة ترسل ألحانها باستمرار.

من هنا تشكلت صورة الأندلس، متقاربة في أوصافها، وألوانها، فهي أقرب إلى لوحة فنية ناطقة، فهي بستان زاه بالألوان، أو حديقة غناء أو واحة خضراء سمّها ما شئت.

والناس لا بد أن يتأثروا بهذا الحسن والجمال الذي منحتهم إياه الطبيعة، ولا بد أن يترك في نفوسهم انفعالات وأحاسيس، وذلك واضح في ظروفهم ورقتهم وميلهم إلى الملذات واشتغال قلوبهم بالحب لدرجة أن أحد أدبائهم وهو أبو الحسن علي بن شفيع البسطي علل هذه الظاهرة العامة في الأندلس بقوله: (لو طبعت على الزهد لحملني حسن بلادي على المجون والعشق والراحات).

ويرى أحد أدباء الأندلس أن جمال الطبيعة يجلو صدأ النفوس ويحيي موات القلوب.

لقد دفع ولع الأدباء الأندلسيين بطبيعة بلادهم إلى تأليف كتب في هذا الباب مثل كتاب الحدائق لابن فرج الجياني، وكتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل الحميري.

ويذكر الدكتور الركابي أن شعر الطبيعة تعبير جديد في أدبنا العربي جاءنا

من الآداب الغربية وكان من أهم مظاهر الاتجاه الرومانسي في أواخر القرن الثامن عشر.

ويتضح إحساس الأندلسيين بجمال بلادهم من تشبيههم لها بالجنة وهي المثل الأعلى لجمال المكان.

جزيرة شقر:

لا بد من التعرف – ولو بشيء يسير– على هذه الجزيرة التي كان يقصدها نفر من شعراء الأندلس لينشرح ويستريح، ويستطيب تلك الريح، ومنهم ابن خفاجة الذي كان يجول في واديها ويتنقل مع غيره من الشعراء من نواديها إلى بواديها.

كانت تلك الجزيرة جميلة ساحرة مبهجة للنفوس، مذهبة للأتراح، صحيحة الهواء. زاهية الأزاهر، مخضرة العشب، يحيط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور.

يذكر الحميري أنها حسنة البقعة،كثيرة الأشجار والثمار، والأنهار.

وصفها ياقوت الحميري في معجم البلدان بأنها (أنزه بلاد الله) وكان اسمها يتردد في شعر الحنين الذي تولده في نفس من فارقها ذكريات أيامها المشرقة ولياليها العطرة. فقد قال فيها الأديب أبو عبد الله محمد بن عائشة:

وهيهات حالت دون شقر وعهدها ليالٍ وأيام تخال لياليا

شعر الطبيعة عند ابن خفاجة

يعتبر ابن خفاجة بحكم النقاد ومؤرخي الأدب العربي من شعراء الطبيعة لأنه نشأ في حضنها وغذي بلبانها، فالطبيعة عنده لا تعني ذلك الهيكل الجامد الذي يحيط بنا، بل هي كائن حي حساس، فيه رقة وعطف وفيه جمال ورشاقة وفيه حياة وحركة.

والطبيعة عنده هي شقر، مسقط رأسه، وملعب طفولته، ومسرح شبابه، وليست كما هي بالنسبة لغيره بقاعاً جميلة متفرقة أو مناظر تلفت النظر.

إن النهر الذي يصفه ابن خفاجة نهر شرب من مائه، وإن الروضة التي يتحدث عنها قد قطف ثمارها، وتفيأ ظلالها، وإن الأطيار المغردة كائنات قد ألفها وعاش بينها، وشرب الراح على أنغامها وألحانها، وأن النسيم الذي ينعش روحه ويلهب حسه وخياله قد صحبه وناجاه.

وعندما أجبرت الظروف ابن خفاجة على ترك جزيرة شقر أصبح شعره يفيض باللوعة في غربته حتى قضت له الظروف العودة إليها.

ولابن خفاجة عشرات القصائد التي يتحدث فيها عن الطبيعة، في شتى مظاهرها، وله قصائد جمع فيها بين وصف الطبيعة وغيرها من الموضوعات لا سيما مجالس الخمر والغزل، ولا تكاد تجد له قصيدة خالية مما يتعلق بالطبيعة حتى قصائد المدح والرثاء، فالطبيعة هي المعين الذي يستمد منه التشبيهات والاستعارات، فتكسب شعره حيوية وجدة. كان ابن خفاجة يتفاعل مع الطبيعة الأندلسية، ويتأثر بها فيشاطرها همومه وأشجانه، ويقاسمها مشاعره التي تفيض حباً وحناناً، إن إسقاط الحواس على الطبيعة بالصيغة التي عرفتها قصائد ابن خفاجة لم تكن معروفة لدى شعراء أندلسيين آخرين. ولا عجب إذن أن يعدّ ابن خفاجة، أشهر شعراء

الأندلس في وصف الطبيعة.

وتأكيداً لذلك نسوق هذه المقطوعة لابن خفاجة في وصف الحديقة:

وصـــقيلةِ الأنـــوار تلـــوي عطفهـــا	ريـــحٌ تلـــف فروعهـــا معطـــار
عـاطى بهـا الـصهباءَ أحـوى أحـورٌ	ســـحّابُ أذيـــال الـــسُّرى ســـحّار
والنّـــوْر عقـــدٌ والغـــصونُ ســـوالفٌ	والجـــذع زنـــدٌ والخلـــيج ســـوار
بحديقـــة مثـــل اللَّمـــى ظـــلاً بهـــا	وتطلعـــت شَـــنَباً بهـــا الأنـــوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى	وشـــدا الحمـــام وصـــفق التيـــار
غنـاءَ ألحـفَ عطفَهـا الـورقُ النـدي	والتـــفَّ في جنباتهـــا النـــوار
فتطلعـــت في كـــل موقـــع لحظـــة	مـــن كـــل غـــصن صـــفحةٌ وعِـــذارُ

يلاحظ من الأبيات السابقة أن فنّاً جديداً ظهر في الأندلس سمي بفن النوريات، والنور الزهر الأبيض أو حسن النبات وطوله، ومن أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار هذا الفن: وفرة الأزهار، والرخاء الاجتماعي وحياة اللهو.

وتبدو النوار في القصيدة وكأنها امرأة تروي الرجل بعطفها وحنانها، وتتعاطى الخمر، وهي جارية أخاذة ذات عينين سوداوين ترتدي ثوباً طويلاً ملامساً للأرض، وفي هذا تظهر الأشياء الثلاثة اللازمة لابن خفاجة وهي: الطبيعة والمرأة والخمر.

لقد جعل ابن خفاجة النور عقداً تزين به المرأة عنقها، كما جعل من الغصون المتفرعة شعر المرأة المتدلي على كتفيها، والتفاف الزهر في الحديقة سوار يزين معصمها، وهذه العناصر الثلاثة السوار والزند والسوالف عناصر أساسية في المرأة.

والحديقة في نظر ابن خفاجة ليست زهوراً وأنواراً بل هي امرأة بفمها وقدّها وعطفها، فالقضيب وهو الغصن الرطب الصغير في حالة سكر وقد بدأ بالرقص بعد

شربه الخمر، أما الحمام فأضاف جواً من الفرح إلى الطبيعة بغنائه الجميل.

هذه الأمور تدل على أن ابن خفاجة كان يعمل على إحياء الطبيعة لبيان جمالها في عيوننا.

وفي نهاية المقطوعة يعود السكون إلى الطبيعة، فقد حان وقت الراحة بعد هذا الحفل الرائع فاستعارت الحديقة الورق ليكون غطاء لها والتحفت به.

نلاحظ أن معظم صور المقطوعة مستمدة من الطبيعة وواقع البيئة، ونلاحظ أن الشاعر مزج حالته النفسية بالمظاهر الطبيعية، لقد تخيل الحياة في ما لا حياة فيه، وجعل من الجماد صفات إنسانية فالنور عقد، والغصون شعر طويل، ومن التشبيهات هذه الاستعارات كرقص القضيب وصفق التيار ومن الكناية (سحاب أذيال الصبى) ومن الجناس (أحوى وأحور) مزج الجماد بمظاهر الطبيعة.

مظاهر الطبيعة في شعر ابن خفاجة:

يعتبر ابن خفاجة شاعر الطبيعة بامتياز حتى في أغراضه الشعرية كالمدح والرثاء، فلم يتخل في أية قصيدة من قصائده عن ذكر الطبيعة وعناصرها، ومن العناصر الطبيعية التي أخذها ابن خفاجة متغزلاً بها وبجمالها ما يلي:

1. الماء: يقول

فكرعت من ماء الصباح غلالةً ... تندى ومن شفق السماء نقابُ

في حديث للريح الرخاء تنفسٌ ... أرجٌ وللماء الفراتِ عبابُ

ولَرُبَّ غضّ الجسم مدَّ بخوضه ... شبحاً كما شقَّ السماءَ شهابُ

2. الخضرة والأزاهير:

إن الخضرة والنرجس والطيب والأشجار، تعطر جو الغزل والوصف عند ابن

خفاجة فإذا وصف المرأة فكأنه يصف الطبيعة فيقول:

فتـــق الـــشباب بوجنتيهـــا وردةً ... في قـــرع أســـلحةٍ تميـــد شـــباباً

وضـحت ســوالف جيـدها سوســانةً ... وتـــــوردت أطرافُهـــــا عِنّابـــــاً

3. الريح:

يمزج ابن خفاجة المحسوس مع المعنوي لخدمة الوصف والتعبير عن الوجدان، وهو مزج بين الطبيعة والمحبوب، فيرى أن الريح في الغالب تحمل عاطفة صادقة ممزوجة بالدموع واللوم والأسى والعتاب ومحفوفة بألوان الطبيعة وأزاهيرها، ومهما فصلت المسافات بين المحبين، فالهواء قادر على جمعهما فليست البحور عوائق ولا الجبال سدوداً ولا اليابسة حواجز.

وفي هذا يقول:

ولهـــــوتُ فيـــــه بـــــدَّرةٍ ... مكنونـــــةٍ في حُـــــقِّ خِـــــدرك

وقـــد اســـتدار بـــصفحتي ... سوســـان جيـــدكِ طـــلُّ دُرّك

حيـــث الحُبابـــةُ دمعـــةٌ ... تجـــري بوجنـــةِ كـــأسِ خمـــرك

4. الليل والصبح:

فرضت الحياة الاجتماعية على ابن خفاجة حياة الترف واللهو فيذكر ليالي أنسه ولهوه ومجونه في الليالي الليلاء، بعيداً عن عيون الحاسدين والمبغضين فيتغزل كما يحلو له، وفي هذا تأكيد لما قلناه سابقاً وهو أن الطبيعة تدخل في كل باب من أبواب شعر ابن خفاجة. فيقول:

والليـــلُ ســـترٌ دوننـــا مرســـلٌ ... قـــد طرّزْنـــه أنجـــمٌ حمـــرُ

أبكـي ويشجيني ففي وجنتي ... مـــــاء وجنتُـــــه جمْـــــرُ

وبـات يـسقيني تحـت الـدجى مـــشمولة يمزُجهـــا القطـــرُ

5. القمر:

في بعض أسفار ابن خفاجة في الليل، طلع عليه القمر، فجعل يفكر في معنى خسوفه وإقماره وعلة إهلاله وبدوره وغير ذلك معتقداً أن ذلك علامات لأصحاب العقول، حتى يفكروا في بديع صنع الله لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (آل عمران: آية 190).

يقول:

لقـد أصـخْتُ إلى نجـواكَ مـن قمـر وبـتُّ أُدلجُ بـين الـوعي والنظـر
لا أجتلـي لُمَحـاً حتـى أعـي مُلَحـاً عدلاً من الحكم بين السمع والبصر
تمُّـر مـن نـاقصٍ حـواراً ومكتمـل كـورا ومـن مرتَـقٍ طـوراً ومنحَـدِر
والنـاس مـن معـرض يلـهى وملتفـت يرعـى ومـن ذا هـل ينـسى ومـدكر

6. السماء:

نظر الشاعر إلى السماء فتأثر برؤيتها وأنثى لوصفها، فلم يعبر عمّا رآه فحسب، بل عبر عما شعر به فتراءت الخمرة ضاحكة أمام عبس المساء والسماء تحسد الأرض فيقول:

ألا يـــا حبـــذا ضـــحك الحميّـــا بحانتهـــا وقـــد عـــبس المـــساء
وأدهـــم مـــن جيـــاد المـــاء مهـــر تتـــازع جلّـــه ريـــح رخـــاء
إذا بـدت الكواكـب فيـه غرقـى رأيـت الأرض تحـسدها الـسماء

تلكم إذن بعض مظاهر الطبيعة في شعر ابن خفاجة. وذلكم مثلثه الخاص وهو الطبيعة والمرأة والكأس، وتشغل يد الطبيعة شعر ابن خفاجة حتى بدت لغته

تمتاز بالنعومة والانسجام، يحلي معانيه استعارات وتشابيه.

ترى فما هي خصائص شعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة؟

خصائص شعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة:

1. جعل ابن خفاجة وصف الطبيعة حركة أدبية وليس غرضاً مستقلاً فقط.
2. مزج بقوة بين جمال الطبيعة وجمال المرأة فإذا تغزل صاغ من الورود خدوداً وصاغ من النرجس عيوناً.
3. تفنن في الموضوعات وتنوع فمن بيئة ترف إلى قصور وبرك إلى فن وبحار.
4. صور ابن خفاجة الجانب الضاحك والسار من الطبيعة.
5. اهتم بالأوصاف الحسية والمظاهر الخارجية.
6. تعلق ابن خفاجة بالطبيعة الأندلسية فشكلت حضوراً في غزله ومدحه ووصفه ورثائه.
7. المرأة عند ابن خفاجة صورة من محاسن الطبيعة فالمرأة عنده روض وجنة وشمس فلا يذكر المرأة إلا ويذكر الطبيعة.
8. صور الطبيعة على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط فهي ضاحكة ومسرح للهو وموضع للشراب.
9. كان تصويره للطبيعة دقيقاً اعتمد بذلك على دقة ملاحظته وقوة خياله.
10. يمثل ابن خفاجة نهضة شعر الطبيعة في الأندلس وإن كان معظم شعراء الأندلس قد تغنوا بجمال طبيعتها إلا أنه فاق أولئك الشعراء.

الموشحات

الموشح: فن شعري مستحدث ابتكره العرب خلال وجودهم الطويل في الأندلس (إسبانيا والبرتغال حالياً) والذي دام حوالي ثمانية قرون وذلك من 92 – 897هـ.

ويختلف الموشح عن ضروب الشعر الغنائي العربي في عدة أمور منها:

- إلتزامه بقواعد معينة.
- خروجه غالباً على أعاريض الخليل بن أحمد.
- استعماله لغة دارجة.
- اتصاله القوي بالغناء.

ومن الملفت أن المصادر التي تناولت تاريخ الأدب العربي لم تقدم تعريفاً شاملاً للموشح، بل اكتفت بالإشارة إليه، غير أن ابن سناء الملك قال: (الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص).

وتجمع موشح على موشحات أو تواشيح بمعنى زين أو حسن.

نشأة الموشحات:

نشأت الموشحات في الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري أي التاسع الميلادي، في تلك الفترة ازدهرت الموسيقى وشاع الغناء، واحتك العنصر العربي بالعنصر الإسباني، فكانت نشأة الموشحات لحاجة فنية أولاً ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً فمنذ قدوم زرياب المغني الموصلي إلى الأندلس، أولع الأندلسيون بالغناء والموسيقى، وإذا ازدهر الغناء والموسيقى كان لازدهارهما تأثير في الشعر وهذا ما حصل في الشام والعراق في العصرين الأموي والعباسي.

واتخذ تأثير الغناء والموسيقى صورة في الأندلس فظهر هذا الفن الشعري الغنائي (الموشح) الذي تتنوع فيه الأوزان وتتعدد فيه القوافي.

من هو مخترع الموشحات ؟؟

مخترع الموشحات رجل اسمه مقدم بن معافر القبري وهو شاعر من شعراء الأندلس عاش في زمن الأمير عبد الله.

تطور الموشحات:

كانت الموشحات في بادئ الأمر بسيطة التركيب، قليلة التعقيد، تتخذ مجالها من الموضوعات الغنائية كالخمر والغزل والطبيعة وتكتب باللغة العربية، ما عدا الخرجة التي كانت تكتب بالأندلسية، وفي القرن الخامس الهجري تطورت الموشحات وذلك زمن ملوك الطوائف، وبعد ذلك بقليل تطورت فنتج عنها فرع يسمى الزجل وأصبح الاتجاه الشعبي ممثلاً في لونين:

الأول: لون الموشحات وكانت تكتب باللغة الفصحى.

الثاني: لون الزجل وأصبح يكتب كله باللهجة العامية.

وانتقل اللونان من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق فكثر الوشاحون والزجالون وعرفهما كذلك الأدب الأوروبي فتأثر بهما شعراء جنوب فرنسا المسمون (التروبادور).

خصائص الموشحات:

1. الجمع بين الفصحى والعامية.
2. التحرر من الوزن والقافية.

3. تلحينها بموجب موازين خاصة تختلف عما هو معروف في أشكال الغناء الأخرى.
4. ترصيع الأبيات وتزيينها بالمحسنات البديعية.

أغراض شعر الموشحات:

تنوعت أغراض شعر الموشحات ما بين وصف ومدح وذكريات لكن الغزل كان الغرض الشائع بين جميع الأغراض.

بناء الموشحات:

إن الطريق إلى دراسة الموشحات الأندلسية طريق صعب وشائك، ويحتاج قطعه إلى كثير من الصبر فضلاً عن الخبرة والرغبة، وتختلف الموشحات عن القصائد العربية من حيث البناء، فالموشح يتكون من أجزاء مختلفة يكوّن مجموعها الموشح الكامل وقد اصطلح النقاد على تسمية هذه الأجزاء بمصطلحات وهي:

1. **المطلع:** هو البيت الشعري الذي يبدأ به الموشح.
2. **القفل:** هو السطر الشعري الذي يلي الدور ويتكون على الأقل من غصنين وعلى الأكثر من أربعة.
3. **الدور:** أبيات شعرية تلي المطلع.
4. **السمط:** هو السطر الشعري الواحد الذي يتكون منه الدور.
5. **الغصن:** هو الجزء الواحد من القفل.
6. **البيت:** هو الذي يتكون من الدور والقفل الذي يليه.
7. **الخرجة:** هو الخروج من الموشح.

ولتوضيح ذلك نسوق هذا الموشح البسيط لابن زهر:

مطلع/ حيّ الوجوه الملاحـــا وحيٍّ نُجل العيون

هل في الهوى من جناح أو في نديم وراح

رام النصيح صلاحي

وكيف أرجو صلاحا بين الهوى والمجون

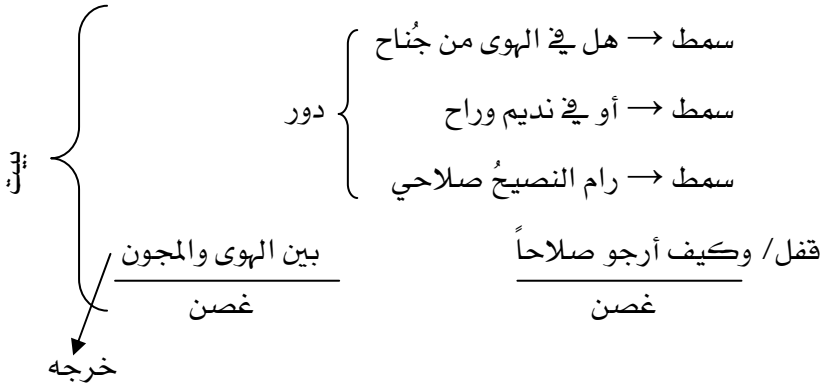

من ألمع الأسماء في سماء التوشيح أبو بكر بن زهر وأبو الحسن بن فضل أما رئاسة فن التوشيح فهي لأبي عبد الله بن الخطيب صاحب الموشحة الشهيرة (جادك الغيث) والمتوفى سنة 1374 م شاعر الأندلس والمغرب، تولى الوزارة بغرناطة وعرف بذي الوزارتين (الأدب والسيف). وتعتبر موشحة ابن الخطيب من أشهر الموشحات وأغناها بالفكرة والصورة والإحساس والتلوين الكلامي.

لسان الدين بن الخطيب
713 – 776 م

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني اللوشي الملقب بذي الوزارتين، من كبار وزراء بني نصر (بني الأحمر) وكتابهم وشعرائهم، كانت له رحلات إلى المغرب، له مؤلفات كثيرة ورسائل وقصائد وموشحات مشهورة، أشهرها موشح: جادك الغيث وهو في مدح الغني بالله أمير غرناطة وقد افتتحه بالغزل.

توفي لسان الدين على يد أحد مخدوميه سنة 776م.

موشح جادك الغيث:

جادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى ... يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُكَ إلا حُلُماً ... في الكَرى أو خِلسةَ المختلسِ
إذ يقود الدهر أشتات المنى ... نَنْقلُ الخطْوَ على ما تَرْسُمُ
زُمُراً بين فَرادى وثنا ... مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جلَّلَ الروضَ سنا ... فثغورُ الزهر منه تبسِمُ
وروى النعمانُ عن ماء السما ... كيف يروي مالكٌ عن أَنَسِ
فكساهُ الحُسْنُ ثوباً مُعْلَما ... يزدهي منه بأبهى مَلبَس
في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهَوى ... بالدجى لولا شُموسُ الغُرر
مالَ نجمُ الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر
وَطَرٌ ما فيه من عيب سوى ... أنه مرَّ كلمح البصر
حين لذّ النومُ شيئاً أوكما ... هجم الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارت الشّهْبُ بنا أو ربما ... أَثّرتْ فينا عيونُ النرجسِ

أي شـــيء لا مـــرئ قـــد خَلُـــصا ... فيكونُ الروض قد مُكِّن فيه
تنهـــب الأزهـــارُ فيـــه الفُرصـــا ... أَمِنَـتْ مـن مكـره مـا تتقيـه
فـــإذا المـــاء تنـــاجى والحـــصا ... وخـــلا كـــل خليـــل بأخيـــهِ
تُبـــصر الـــوردَ غيـــوراً بَرِمـــا ... يكتسي من غيظه ما يكتسي
وتـــــرى الآسَ لبيبـــــاً فَهِمـــــا ... يـــسرقُ الـــسمعَ بـــأَذْنيْ فَـــرَس
يـا أهيَـل الحـيِّ مـن وادي الغـضا ... وبقلـبي مـسكن أنـتم بـه
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا ... لا أبـــالي شـــرقه مـــن غربـــه
فأعيـدوا عهـد أُنْـس قـد مـضى ... تُعتقـوا عبـدكم مـن كَربِـهِ
واتقـــوا اللّه وأَحْيـــوا مُغْرَمـــاً ... يتلاشـــى نفـــساً في نَفَـــس
حـبس القلـب علـيكم كرمـاً ... افترضـــون عفـــاء الحُـــبُس
وبقلـــبي مـــنكم مقتَـــربُ ... بأحاديـث المنـى وهـو يعيـدْ
قمـــرٌ أطلـــعَ منـــه المغـــربُ ... شـقوة المُغـرى بـه وهـو سـعيدْ
قـد تـساوى محـسنٌ أو مـذنب ... في هـواه بـين وعـد ووعيـدْ
أحـــورُ المُقلـــةِ معـــسولُ اللَّمـــى ... جـال في الـنفس مجـالِ الـنَّفَسِ
سـدّد الـسهم فأصـمى إذ رمـى ... بفـــؤادي نبلـــةَ المفـــترس
إن يكـــن جـــار وخـــابَ الأمـــلُ ... ففـؤادُ الـصبِّ بالـشوق يـذوبْ
فهـــو للـــنفس حبيـــبٌ أولُ ... ليس في الحب لمحبوبٍ ذُنوبْ
أمـــره معتمـــلٌ ممتثـــلٌ ... في قلـوبٍ قـد براهـا وقلـوبْ
حكَّـم اللحـظ بـه فاحتكمـا ... لم يراقـب في ضـعافِ الأنفـسِ
ينـصف المظلـوم ممـن ظلمـا ... ويجـازي البَـرَّ منهـا والمُـسي
مـا لقلـبي كلمـا هبـت صَـبا ... عـاده عيـدٌ مـن الـشوق جديـدْ

جلـــب الهـــمَّ لـــه والوصـــبا ... فهو للأشجان في جهد جهيد

كـــان في اللـــوح لـــه مكتتبـــاً ... قولـــه: (إن عـــذابي لـــشديد)

لا عـــج في أضـــلعي قـــد أُضـــرما ... فهـــي نـــارٌ في هـــشيم اليَـــبسِ

لم يَـــدَعْ في مهجـــتي إلا ذَمـــا ... كبقـــاء الـــصبح بعـــد الغَلَـــس

سلِّمي يا نفسُ في حُكْمِ القَضا ... واعمري الوقت برُجعى ومتاب

ودعـي ذكـر زمـان قـد مـضى ... بـين عُتبـى قـد تقـضّتْ وعتـاب

وأصر في القول إلى المولى الرِّضى ... مُلـهمِ التوفيـق في أم الكتـاب

الكـــريم المُنتهـــى والمُنتمـــى ... أســـد الـــسرجِ وبـــدرِ المجلـــسِ

ينـــزلُ النـــصرُ عليـــه مثلمـــا ... ينـــزل الـــوحيُ بـــروح القُـــدسِ

مـصطفى اللّه سمـي المـصطفى ... الغـني بـاللّه عـن كـلِّ أحَـدْ

مـن إذا مـا عقـد العهـد وفـى ... وإذا مـا فـتح الخطـبَ عقـدْ

مـن قـيس بـني بـن سـعدٍ وكفـى ... حيثُ بيتُ النصرِ مرفوعُ العمدْ

حيث بيتُ النصر محميُّ الحمى ... وجنـى الفـضلِ زكـيُّ المغـرس

والهـوى ظـلٌّ ظليـلٌ خيَّمـا ... والنّـدى هـبَّ إلى المُغـترسِ

هاكَهـا يـا سـبط أنـصار العُـلا ... والـذي إن عثـر الـدهر أقـالْ

غـادةً ألبَـسها الحُـسْنُ مُـلا ... تبهـرُ العـينَ جـلاءً وصِـقالْ

عارضـت لفظـاً ومعنـى وحُلـى ... قـولَ مـن أنطقـه الحـبُّ فقـال

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى ... قلـب صـبٍّ حلّـه عـن مكـنِسٍ

فهـو في حَـرٍّ وخفـقٍ مثلمـا ... لعبـتْ ريـحُ الـصَّبا بـالقبسِ

اللغة:

همى: نزل وسقط.

المختلس: الذي يسلب الشيء بخفة وسرعة

الحيا: المطر والنعمان، نوع من الزهر يدعى شقائق النعمان نسبة إلى النعمان بن المنذر.

الغرر: جمع غرة وهي الجبين.

الوطر: الحاجة.

البرم: السأم والضجر.

المغرم: المحب.

الحبس: ما كان وقفاً لله تعالى.

أصمى: قتل.

براها: أضعفها وجعلها نحيلة هزيلة.

الوصب: المرض ونحول الجسم.

الأشجان: الأحزان.

اللاعج: ألم الحب وهو يشبه النار.

الذما: بقية الروح.

الغلس: الظلام

المنتمى: الكريم النسب.

الغني بالله: لقب المدوح وينتمي إلى سعد بن عبادة الصحابي الأنصاري وقد دعيت أسرته ببني الأحمر وبني النصر أيضاً.

تبهر العين: تعجب بها.

الصقال: الجلاء والكشف والإظهار في أتم الزينة.

المكنس: بيت الغزل.

القبس: الشعلة من النار.

المعنى الإجمالي:

هذا الموشح من أشهر موشحات لسان الدين بن الخطيب وهو في مدح الغني بالله أمير غرناطة، اقتتحه الوشاح بالغزل وعارض فيه موشحة ابن سهل الأشبيلي التي يقول فيها:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبٍّ حلّه عن مكنس

فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

يذكر ابن الخطيب في هذا الموشح أيام الأنس في الأندلس حيث الطبيعة الخضراء والأزهار الباسمة نتيجة ما ينزل عليها من ماء السماء، والوشاح كغيره من شعراء الأندلس ينعم باللذات والمسرات وتناول كؤوس الخمر مع الحبيب ولا يعكر صفو جوه شيء سوى انقضاء الليل بسرعة.

وهجوم الصباح بعد أن كان كل خليل يتمتع بلقاء خليله. ويوجه الوشاح بعد ذلك خطابه إلى سكان وادي الغضا حيث الحبيب، فهم يسكنون في قلبه ومن شدة حبه لهم لم يعد يعرف شرق الدنيا من غربها، فقد ضاقت عليه بما رحبت، فأصبح في كرب ويطلب منهم أن يعيدوا له أيام أنسه فهو في الرمق الأخير يلفظ نفساً بعد نفس.

ويذكر صفات الحبيب فهو بهي الطلعة كالقمر، في عينيه حور وفي شفتيه سمرة، رمى الشاعر بسهم قاتل وأنفذ فيه أمره، فقلبه يذوب لأجله وكلما هبت عليه

ريح الصبا هاجه شوق الحبيب، فمرض ونحل جسمه فهذا الحبيب مبعث الحزن له ومعذب قلبه، يضرم في قلبه نار الحب كما تضطرم النار في الهشيم، فلم يبق فيه إلا بقية من روح. وليس له من حول إلا التسليم بقضاء الله والتوبة والاسترجاع وأن يترك أيام زمان ويتحول إلى الله عز وجل.

ولا يفوت الشاعر أن يشيد بانتصارات الممدوح فالغني بالله منتصر دائماً وهو الموفي بعهده والمفرج للكروب وهو من أسرة شريفة.

وأخيراً يشبه الشاعر موشحته كغادة حسناء بدت في أبهى زينتها وهي مهداة إلى ممدوحه يعارض فيها موشحة الأشبيلي التي يتساءل فيها: هل عرفت تلك الغادة الجميلة أنها جعلت القلب يخفق حباً كما تحرك الريح شعلة النار ؟

تعقيب:

هذه الموشحة من بحر الرمل، وهو من البحور البسيطة، التي لها جرس موسيقي مؤثر، جرى فيها الوشاح على غرار نظم الموشحات الأندلسية التي تبدو فيها أجزاء الموشح، وتظهر في الموشح عاطفة المحبة للممدوح وإن كانت بدايته غزلية، وألفاظه تدل على حب ووصل ولوعة وحزن وغير ذلك، فهذا شأن المحبين، ولا يخلو الموشح من ذكر طبيعة الأندلس الجميلة، وهي التي لا يكاد يخلو ذكرها في كل قصيدة من قصائد شعراء الأندلس وتبدو في القصيدة حياة الترف والشراب التي كان يعيشها شعراء الأندلس.

وقد زين الشاعر موشحته بأساليب بيانية وبديعية كثيرة تنسجم مع حياة الرفاه والعيش الهنيء ومن ذلك على سبيل المثال:

التشبيه: تشبيه الوصال بالحلم.

تشبيه نار الحب بالنار في الهشيم.

الحبيب معسول اللمى.

الاستعارة: ثغور الزهر تبسم.

الليالي تكتم السر.

هجم الصبح

الطباق: محسن ومذنب.

وعد ووعيد.

البر والمسيء.

الاقتباس: إن عذابي لشديد.

الجناس: جهد وجهيد.

وعد ووعيد.

التذييل: ليس في الحب لمحبوب ذنوب

استعمال الماضي ليدل على المستقبل: جادك الغيث

المراجـــــع

المراجع

- د. شـوقي ضـيف، تاريخ الأدب العربـي ــ العـصر الجـاهلي ج1، دار المعارف بمصر.
- د. عمـر فـروخ، تـاريخ الأدب العربـي ــ الجـزء الأول، ط5، دار العـالم للملايين.
- طـلال صـالح ومعـاذ الـسرطاوي، مختـارات مـن النـصوص الأدبيـة، 1986م.
- د. يوسـف عيـد، ديـوان الخـواطر، شـرح دار الجيـل ــ بـيروت، ط1، 1992.
- الزوزني، شرح المعلقات السبع.
- د. داود غطاشة ود. عبد القـادر أبو شـريفة، مصادر الدراسـات الأدبية واللغوية، ط3، 1993، دار الفكر للنشر والتوزيع.
- ديـوان حـسان بـن ثابـت، ضـبط وشـرح عبـد الـرحمن الـدقوقي، دار الأندلس ـ بيروت.
- ديوان كعب بن زهير، صنعة الإمام أبي سعيد السكري، دراسة د. مفيـد قميحـة، الناشـر ــ دار الـشواف للطباعـة والنـشر ــ الريـاض ــ السعودية، 1989.
- ديوان جرير، ضبط وشرح إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط1.
- ديوان الفرزدق، كرم البستاني، الناشر ـ دار صادر ـ بيروت، 1982.
- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وضبط د. عمر الطبّاع، الناشر ــ دار الأرقم.

- النقـائض، أبـو عبيـدة معمـر بـن المثنـى البـصري، المجلـد الأول، دار صادر، بيروت، ط1، 1998.
- ديوان البحتري، شرح وتعليق د. محمد التويجي، الناشر ـ دار الكتاب العربي، 2005.
- ديـوان أبـي تمـام، ضـبط وشـرح إيليـا الحـاوي، الناشـر – دار الكتـاب اللبـاني، ط1، 1981.
- د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر ط7.
- د. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف بمصر، ط2.
- د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر، ط2.
- د. إحسان النص، حسّان بن ثابت ـ حياته من شعره، الناشر ـ دار الفكر الحديث ـ لبنان.
- د. سيد حنفي حسنين، حسّان بن ثابت ـ شاعر الرسول، الناشر – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- د. شـوقي ضـيف، التطـور والتجديـد في الـشعر الأمـوي، الناشـر ـ دار المعارف بمصر، ط 2.
- د. أحمـد الـشايب، تاريخ الـشعر الـسياسي، ط2، 1962، الناشـر ـ مكتبة النهضة المصرية.
- معـاذ السرطاوي ورفيقـه، مختـارات مـن الـشعر العربـي القـديم، ط1، 1989، الناشر ـ دار الفكر للنشر والتوزيع.
- د. محمـد زغلـول سـلام، الأدب في العـصر المملـوكي، الناشـر ـ دار المعارف ـ القاهرة، 1970.
- أحمد الهيتمي، العمدة في شرح البردة، دار النهضة للنشر والتوزيع.

- ديـوان ابـن سـناء الملـك، ج2، الناشـر – دار الكتـاب العربـي للطباعـة والنشر ـ القاهرة، 1969، محمد إبراهيم نصر.
- د. فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، المعرفة الجامعية، 1993.
- د. جـودت الركـابي، دار الطـراز في عمـل الموشـحات، ط2، 1972، الناشر ـ دار الفكر ـ دمشق.
- د. أشـرف محمـود أبـو نجـا، في الأدب الأندلـسي، ط1، 2006، دار الوفاء، الإسكندرية.
- د. أحمد وفائي، الحنين في الشعر الأندلسي، ط1، 2008، دار الوفاء، الإسكندرية.
- د. مقـداد رحـيم، عـروض الموشـحات الأندلـسية، ط1، 1990، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر.
- سيد أحمد خليل، علوم البلاغة.
- حسن نوفل ورفيقه، اللغة العربية، الناشر ـ دار اليازوري، ط1، 2000.